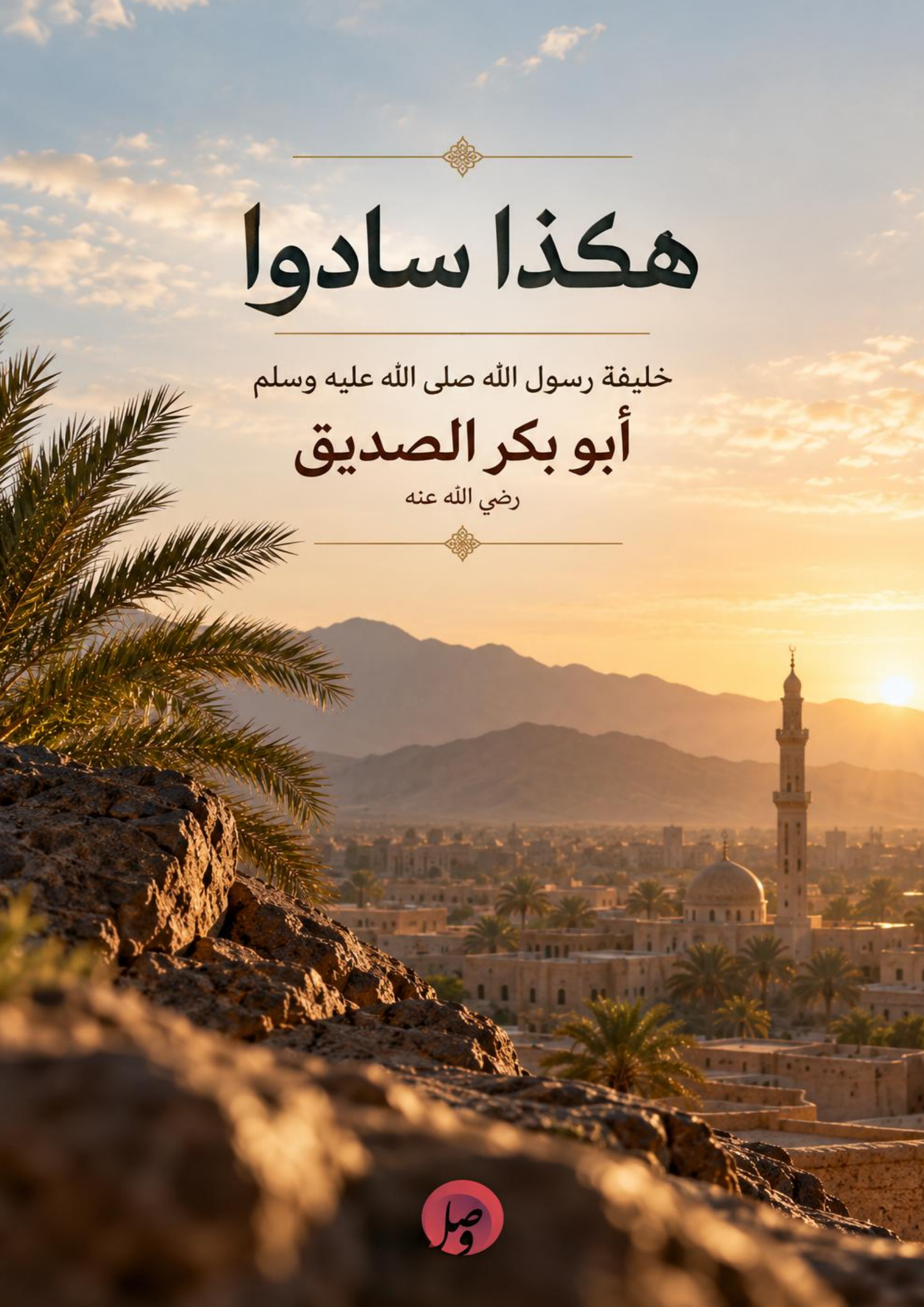
هكذا سادوا
خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
أبو بكر الصديق
رضي الله عنه
وصل

هكذا سادوا

خليفة رسول الله ﷺ

أبو بكر رضي الله عنه

مركز وصل للبحوث والدراسات

الفهرس

تمهيد ..... Error! Bookmark not defined.

المحور الأول: الصدق واليقين وصحبة النبي ﷺ 6

المحور الثاني: القرآن والزهد وحسن الخلق 26

المحور الثالث: الرحمة واللين والمودة 43

المحور الرابع: الخلافة والعدل وبناء الدولة 55

المحور الخامس: القيادة ومعرفة الرجال 72

المحور السادس: الأسرة والأمانة وأواخر المسيرة 86

خاتمة: من صدق الإيمان إلى أمانة الخلافة 100

إذا عرف الحق صدّقه، وإذا صدّقه نصره

لم يكن لقب "الصِّدِّيق" مجرد ثناء على أبي بكر رضي الله عنه، بل وصفًا لطبيعته؛ فإذا عرف الحق لم يتردد في اتباعه ونصرته.

ظهر ذلك منذ إسلامه، فما إن سمع دعوة النبي ﷺ حتى صدّقه واتبعه، فكان أول الرجال إسلامًا، وكان سببًا في إسلام عدد من كبار الصحابة المبشرين بالجنة.

وحين أخبره المشركون بخبر الإسراء للتشكيك فيه، قال بيقين كامل:"إن كان قال ذلك فقد صدق".[1]

فكان التصديق عنده موقفًا عزيزًا :صدقٌ في الاعتقاد، واللسان، والعمل.

(1) قصة تصديقه بالإسراء: الحاكم، المستدرك، من حديث عائشة؛ والبيهقي، دلائل النبوة. واللفظ هنا بالمعنى.

المحور الأول: الصدق واليقين وصحبة النبيﷺ

صدقٌ بدأ من اللحظة الأولى

من أعظم ما يكشف معدن أبي بكر رضي الله عنه أن صدقه مع النبي ﷺ لم يبدأ بعد أن قوي الإسلام وانتشر، بل بدأ منذ اللحظة التي لم يكن فيها للمسلمين قوة ولا سلطان.

فلما جاءه رجال من قريش يخبرونه أن صاحبه محمدًا ﷺ يدعو إلى توحيد الله ويقول إنه رسول الله، لم يندفع خلف تكذيبهم، بل ذهب بنفسه إلى النبي ﷺ وسأله عما بلغه.[2]

فلما أخبره النبي ﷺ برسالته، كان جواب أبي بكر نابعًا من معرفة طويلة بصدقه وأمانته، فقال له :"والله ما جربت عليك كذبًا، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مُدَّ يدك فإني مبايعك".[3]

(2) وردت القصة بعبارات متقاربة في كتب السيرة.

(3) وردت القصة بعبارات متقاربة في كتب السيرة.

لم يحتج أبو بكر إلى رحلة طويلة من المساومة مع نفسه؛ لأنه كان يعرف الرجل الذي أمامه .فمن لم يجرب عليه كذبًا على الناس، كيف يظن به أن يكذب على الله؟

وهنا يظهر سر لقب "الصديق": لقد كان صدقه استجابةً للصدق.

عرف من رسول الله ﷺ الأمانة قبل النبوة، فلما دعاه إلى الله لم تتناقض الرسالة الجديدة مع ما عرفه من سيرته، بل جاءت موافقة له.

ومنذ تلك اللحظة لم يكن إيمانه مجرد موقف عاطفي؛ بل صار صحبةً، وهجرةً، وبذلًا، ودفاعًا، وثباتًا حتى آخر العمر.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: صدق مع نفسه حين عرف الحق، وصدق مع النبي ﷺ حين آمن به، ثم صدق مع الله حين حمل هذا الإيمان إلى آخر الطريق.

يعرف العظيم فينصره

ليست العظمة أن يكون الإنسان عظيمًا في نفسه فقط، بل أن يملك قلبًا يعرف العظمة حين يراها، فلا يحسدها، ولا ينافسها، ولا يقف متردداً أمامها، وإنما ينصرها ويضع نفسه في خدمتها.

وهذه من أعمق خصال أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فقد عرف رسول الله ﷺ قبل البعثة، وعرف صدقه وأمانته ومروءته، فلما دعاه إلى الله لم يستقبل دعوته بروح المتشكك الذي يبحث عن ذريعة للفرار، بل استقبلها بمعرفة سابقة بالرجل الذي أمامه.

ولهذا كان جوابه من أول الأمر واضحًا:" والله ما جربت عليك كذبًا، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مُدَّ يدك فإني مبايعك".[4]

لم تكن هذه سرعةً بلا بصيرة؛ بل كانت بصيرة رجل عرف معدن صاحبه، فلما جاءه الحق من جهته، عرفه كما يعرف النور.

(4) وردت القصة بعبارات متقاربة في كتب السيرة.

ثم بقي هذا المعنى ملازمًا له طوال حياته: لم يحاول يومًا أن يصنع لنفسه مجدًا إلى جوار مجد النبي ﷺ ، بل كان يرى شرفه في الصحبة، وعزَّه في النصرة، ورفعته في أن يكون حيث يحتاجه رسول الله ﷺ .

وهنا تظهر منزلة قلّ من ينتبه إليها: أن تعرف صاحب الفضل، وتعطيه قدره، ولا تنازعه مكانه، ولا تضيق بما آتاه الله من منزلة.

كثيرون يستطيعون أن يصنعوا لأنفسهم شيئًا، لكن القليل يعرف كيف يضع نفسه في الموضع الصحيح حين يقف أمام من هو أعظم منه قدرًا ورسالة.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأنه لم يكن أسير ذاته، بل كان كبير النفس بما يكفي ليعرف العظيم، ويصدقه، وينصره، ويجعل شرفه في خدمته لا في مزاحمته.

ثباتُ لا يعرف التردد

لم يكن لقب"الصِّدِّيق" مجرد اسم اشتهر به أبو بكر رضي الله عنه، بل كان وصفًا لحياة كاملة قامت على صدق الإيمان، وسرعة التسليم لله ورسوله.ﷺ

كان إيمانه بالنبي ﷺ راسخًا لا يتغير بتغير الظروف؛ فما عرف عنه أنه جعل ضغط الناس أو غرابة الموقف سببًا للتردد في الحق .فإذا ثبت عنده أمر رسول الله ﷺ ، لم يبق في قلبه موضع لمساومة أو شك.

ولهذا كان من أشد الناس تمسكًا بسنته بعد وفاتهﷺ ، حتى قال: "لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ".[5]

هنا تظهر حقيقة الثبات :ليس أن يتمسك الإنسان بالحق ما دام يسيرًا، وإنما أن يبقى عليه حين تتغير الأحوال، وتتعدد التأويلات، ويصبح التنازل أقرب الطرق.

فالصديق رضي الله عنه لم ير نفسه أقدر على تقدير المصلحة من هدي النبوة، ولم يجعل تغير الزمن ذريعة لتجاوز ما علمه من رسول اللهﷺ

(5) البخاري (3093).

التمسك بالسُّنة حين تتغير الأحوال

بعد وفاة النبي ﷺ لم يكن التحدي الذي واجه الصحابة صغيرًا؛ انقطع الوحي، وتبدلت الأحوال، وظهرت قضايا لم تكن الأمة قد واجهتها بهذه الصورة من قبل.

وفي مثل هذه اللحظات قد يظن الإنسان أن الظروف الجديدة تسمح له بأن يبتعد شيئًا عن الطريق القديم.

أما أبو بكر رضي الله عنه فكان يخشى العكس تمامًا.

قال:"لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ".[6]

تأمل قوله:"أخشى أن أزيغ".

لم يكن يرى نفسه محفوظًا من الانحراف لمجرد أنه صاحب رسول الله ﷺ وأول الخلفاء من بعده؛ بل كان يعلم أن أول الانحراف قد يكون ترك شيء صغير مع الاعتقاد أن الإنسان قادر على رسم طريق أصلح لنفسه.

---

(6) البخاري (3093).

وهذه هي دقة الاتباع: ألا ينتظر الإنسان حتى يبتعد كثيرًا، بل يخاف من أول خطوة خارج الطريق.

إن أعظم ما يميز القادة الربانيين أنهم لا يجعلون مكانتهم مبررًا للاجتهاد في مقابل النص، وإنما تزيدهم المكانة خوفًا ومسؤولية.

هكذا سادوا: لأنهم كانوا متبعين لا مبتدعين، يزنون الطريق بهدي النبوة، لا بتقلب الأهواء.

اليقين يظهر حين تضطرب الحسابات

يوم الحديبية شقَّت شروط الصلح على بعض الصحابة، فجاء عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر يسأله مستنكرًا.[7]

فكان جواب الصديق في معناه مطابقًا لجواب النبي:ﷺ

"إنه رسول الله، وليس يعصي ربَّه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق".[8]

(7) البخاري (2731–2732)، قصة صلح الحديبية.
(8) البخاري (2731–2732)، قصة صلح الحديبية.

لم يكن يرى كل ما ستؤول إليه الأحداث، لكنه كان يعرف مَن يتبع.

اليقين ليس أن تفهم كل شيء؛ بل أن تثبت على الحق حين لا تفهم كل شيء.

الصاحب بكل ما تعنيه الكلمة، في كل حال وظرف

كان أبو بكر رضي الله عنه صاحب النبي ﷺ قبل الهجرة حين كان الإسلام مستضعفًا، فصدّقه، ونصره، وأنفق ماله في حماية المستضعفين والدعوة.

ثم اختاره الله لصحبة النبي ﷺ في أعظم رحلة في تاريخ الدعوة؛ خرج معه مهاجرًا، ولازمه في الطريق، وكان معه في الغار حتى خلد القرآن تلك الصحبة بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.[9]

وفي المدينة لم يكن مجرد صاحبٍ قريب، بل صار رجل دولة؛ شهد المشاهد، وكان من أقرب الناس إلى النبي ﷺ مشورةً وموقفًا وبذلًا، وحمل أعباء الدعوة في السلم والحرب.

(9) التوبة: 40؛ والبخاري (3905)، في خبر الهجرة.

ثم لما مات رسول الله ﷺ ، ظهر أثر تلك الصحبة الطويلة؛ فكان أثبت الناس عند الفاجعة، وأقدرهم على حمل أمانة الدولة من بعده.

صحبة أبي بكر لم تكن قربًا من النبي ﷺ في زمن الرخاء فقط، بل وفاءً في مكة، وثباتًا في الهجرة، ونصرةً في المدينة، وحملًا للأمانة بعد الوفاة.

هكذا تكون الصحبة :أن تبقى حاملًا للرسالة وإن تغير كل شيء من حولك.

صحبةُ امتلأت حبًّا ووفاءً

لم تكن صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه للنبي ﷺ صحبةَ طريقٍ عابر، بل كانت محبةً عميقة، وخدمةً صادقة، وقلبًا يعيش مع رسول الله ﷺ في أدق التفاصيل.

يروي أبو بكر رضي الله عنه موقفًا من طريق الهجرة، فيقول:"مررنا براعٍ وقد عطش رسول اللهﷺ ، فحلبت كثبةً من لبن في قدح، فشرب حتى رضيت".[10]

(10) البخاري (3908)، ومسلم (2009).

تأمل قوله :"حتى رضيت"؛ لم يقل :حتى شرب، ولا حتى ارتوى، بل عبّر عن راحته هو حين رأى النبي ﷺ قد شرب .كأن عطش رسول الله ﷺ كان عطشه، وراحته راحته.

وهكذا يكون الوفاء في أعلى صوره: أن يجد المرء راحته في راحة من يحب، وأن يحمل همَّه قبل أن يحمل همَّ نفسه.

ثم بقي أثر تلك الصحبة في قلبه بعد السنين . فقد قال أبو بكر رضي الله عنه:"أيكم يقرأ سورة التوبة؟"، فقرأ رجل حتى بلغ قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾، فبكى الصديق وقال:"والله أنا صاحبه".[11]

لم يسمع الآية كخبر من أخبار الماضي؛ بل عادت به إلى الغار، وإلى تلك اللحظة التي جمعته برسول الله ﷺ ، وإلى شرفٍ بقي حيًّا في قلبه :أن سماه الله في كتابه صاحبًا لنبيه.ﷺ

فبكى لا افتخارًا بمكانة، بل شوقًا ووفاءً واستحضارًا لأيامٍ عاشها بقلبه قبل جسده.

(11) الطبري، جامع البيان، تفسير التوبة: 40، أثر رقم (16732).

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: بمحبةٍ لم تكن دعوى، بل خدمةً وبذلًا ووفاءً، وصحبةٍ بقيت حاضرة في قلبه حتى بعد أن صارت ذكرى تتلى في كتاب الله.

كان يخاف عليه أكثر مما يخاف على نفسه

لم تكن محبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ كلمةً تقال، ولا شعورًا ساكنًا في القلب؛ كانت محبةً تتحول في كل موقف إلى حراسةٍ وخدمةٍ وبذلٍ وانتباهٍ لأدق حاجاته.

وحين كان يستأذن النبي ﷺ في الهجرة، طلب منه أن ينتظر، فحبس أبو بكر نفسه عن الهجرة طمعًا في صحبته، وأعد راحلتين لذلك اليوم .فلما جاءه النبي ﷺ وأخبره أن الله أذن له بالهجرة، كان أول ما قاله:"الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟"، فلما قال له:"نعم"، بكى أبو بكر من شدة الفرح.[12]

ثم خرجا، فإذا بالصديق لا يمشي مشية المسافر العادي؛ تارةً أمام النبيﷺ ، وتارة خلفه، وتارة عن يمينه، وتارة عن يساره .فسأله النبي ﷺ عن ذلك، فقال

(12) البخاري (3905)، من حديث عائشة في خبر الهجرة.

ما معناه: أتذكر من يترصد لك فأكون أمامك، وأتذكر من يطلبك من خلفك فأكون وراءك، ولا آمن عليك من جهة.[13]

كان الخوف على رسول الله ﷺ قد أنساه الخوف على نفسه.

ولما بلغا الغار، لم يقل له :ادخل، بل دخل أبو بكر قبله؛ يتفقد المكان ويهيئه، وسد ما استطاع من ثقوبه، ثم جعل جسده نفسه حاجزًا عما بقي منها، حتى نام رسول الله ﷺ ورأسه في حجره، وأصابه الألم فلم يتحرك خشية أن يوقظه.[14]

ولم تكن عنايته به في مواطن الخطر وحدها، بل حتى في حاجاته الصغيرة . يروي أبو بكر رضي الله عنه أنهم مروا براعٍ وقد عطش رسول اللهﷺ ، فحلب له من اللبن، ثم قال كلمته العجيبة:"فشرب حتى رضيت".[15]

لم يقل :حتى ارتوى، وإنما "حتى رضيت"؛ فكأن ارتواء النبي ﷺ هو الذي أروى قلب أبي بكر.

(13) ورد المشي حول النبي ﷺ في أخبار الهجرة عند الحاكم وأهل السير.
(14) تفصيل سدّ ثقوب الغار والنوم في الحجر مشهور في السيرة.
(15) البخاري (3908)، ومسلم (2009).

وحين كان الخطر مواجهةً مباشرة، بقي المعنى نفسه .ففي بدر كان عند رسول الله ﷺ يحرسه شاهرًا سيفه، وقد نُقل عن علي رضي الله عنه أنه ذكر أبا بكر حين سئل عن أشجع الناس، وذكر موقفه في حماية النبي ﷺ يوم بدر.[16]

وقبل ذلك، حين خنق عقبة بن أبي معيط رسول الله ﷺ وهو يصلي، اندفع أبو بكر يدفعه عنه وهو يقول :﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.[17]

فانظر كيف اجتمعت صور المحبة كلها في رجل واحد :انتظر ليصحبه، وبكى فرحًا بصحبته، وحرس طريقه، وسبق إلى موضع الخطر قبله، وجعل جسده وقايةً له، وخدمه عند عطشه، ووقف بالسيف دونه، ودفع عنه الأذى بيده.

هذه لم تكن محبةً تدّعيها الكلمات؛ كانت محبةً لها ثمن.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: أحب رسول الله ﷺ حتى أصبح أمنه أهم عنده من أمن نفسه، وراحته أحب إليه من راحته؛ فكانت الصحبة عنده وفاءً كاملًا :بالقلب، والمال، والجسد، واليقظة، والخدمة، والفداء.

(16) أخبار حماية الصدّيق للنبي ﷺ يوم بدر: ينظر الحاكم، المستدرك، باب مناقبه.
(17) البخاري (3678)، في دفع أبي بكر أذى عقبة بن أبي معيط عن النبي ﷺ.

المحبة تُكتسب بصدق الصحبة

عاد عمرو بن العاص رضي الله عنه من ذات السلاسل وقد رأى قربه من النبي ﷺ، فسأله: "أي الناس أحب إليك؟"، قال:"عائشة"، قال: من الرجال؟ قال: "أبوها".[18]

سنواتٌ من التصديق، والنصرة، والبذل، والصحبة، لم تترك أبا بكر أقرب الناس إلى النبي ﷺ مكانًا فحسب، بل جعلته أحب الرجال إليه.

المحبة الصادقة لا تُطلب بالكلمات؛ تُبنى بمواقف العمر.

فمحبةُ النبي ﷺ للصِّدِّيق لم تأتِ من فراغ؛ فمن صدق مع الله، جعل الله له القبول في قلوب أهل الإيمان والمحبة.

نصرة النبي ﷺ شجاعة أصيلة

لم تكن محبة أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ عاطفةً مجردة، بل نصرةً يدفع ثمنها من روحه وجسده.

(18) البخاري (3662)، ومسلم (2384).

فحين اعتدى المشركون على رسول الله ﷺ عند الكعبة، اندفع أبو بكر يدافع عنه وهو يقول:" أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟".[19]

وقد تعرّض في مكة للضرب الشديد بسبب جهره بالدعوة ونصرته للنبي ﷺ ، حتى حُمل إلى بيته لا يكاد يُعرف وجهه من شدة ما أصابه.[20]

ومع ذلك، كان أول ما شغله حين أفاق أن يسأل عن رسول الله.ﷺ [21]

لم تكن شجاعته طلبًا للبطولة، بل وفاءً لرجلٍ يعتقد لحد الفداء !أن نصرة النبي ﷺ أغلى من سلامة نفسه.

الثقة بالصف من قوة القيادة

في الحديبية، جاء عروة بن مسعود يفاوض النبي ﷺ ، وحاول أن يهوّن من شأن من حوله، زاعمًا أنهم قد يتفرقون عنه إذا اشتد الخطب.[22]

فلم يدع أبو بكر رضي الله عنه هذه الكلمة تمر، وقال مستنكرًا بثقة:"أنحن ننكشف عنه؟!".[23]

---

(19) البخاري (3678)، في دفع أبي بكر أذى عقبة بن أبي معيط عن النبي ﷺ.
(20) خبر ضرب أبي بكر في مكة: ابن هشام، السيرة النبوية، خبر جهره بالدعوة.
(21) خبر ضرب أبي بكر في مكة: ابن هشام، السيرة النبوية، خبر جهره بالدعوة.
(22) البخاري (2731–2732)، خبر عروة بن مسعود وصلح الحديبية.

لم تكن ثقته مجرد حماسة؛ فقد عاد عروة نفسه إلى قريش بعد أن رأى أصحاب النبيﷺ ، فقال لهم إنه لم يرَ ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه، وإنهم "لا يسلمونه لشيء أبدًا".[24]

عرفوا قوة صفهم، فلم يسمحوا للخصم أن يزرع الشك فيه.

الكبير لا يصغر إذا كان تحت إمرة غيره

خرج أبو بكر رضي الله عنه في ذات السلاسل ضمن جيشٍ من المهاجرين الأولين، وانتهت إمرة الجيش إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان حديث عهدٍ بالإسلام.[25]

لم يقل الصديق :أنا أسبق إسلامًا، وأقرب إلى رسول اللهﷺ ، وأعرف قدرًا.

فحين تكون الغاية نصرة الدين، لا تصبح المكانة الشخصية معركةً أخرى داخل المعركة.

---

(23) البخاري (2731–2732)، خبر عروة بن مسعود وصلح الحديبية.
(24) البخاري (2731–2732)، خبر عروة بن مسعود وصلح الحديبية.
(25) البخاري (3662)، في تأمير عمرو بن العاص على ذات السلاسل؛ وانظر كتب المغازي.

هكذا كان الرجل الذي سيصبح خليفة المسلمين، لا يرى غضاضةً أن يكون جنديًا إذا اقتضت المصلحة ذلك.

هكذا سادوا: كانوا كبارًا بما يكفي ليطيعوا، كما كانوا كبارًا حين يقودون.

القرب من القائد مسؤولية

كان أبو بكر رضي الله عنه قريبًا من النبي ﷺ في مواطن القرار، لا قربَ صحبةٍ فحسب، بل قربَ رأيٍ ومشورة.[26]

فبعد بدر، استشار النبي ﷺ أصحابه في الأسرى، فأشار أبو بكر بأخذ الفداء منهم، رجاء أن يقوى به المسلمون وأن يهديهم الله إلى الإسلام.[27]

فأخذ النبي ﷺ برأيه، قبل أن ينزل الوحي بعد ذلك بتوجيهٍ آخر في شأن الأسرى.

كان الصديق حاضرًا حيث تُتخذ القرارات الكبرى؛ يفكر، ويجتهد، ويضع رأيه بين يدي القائد.

(26) مسلم (1763)، في مشورة أبي بكر بشأن أسرى بدر.
(27) مسلم (1763)، في مشورة أبي بكر بشأن أسرى بدر.

فالرجل الكبير لا يكون قريبًا من مركز القرار بالمكان، بل بما يحمله من عقلٍ ورأيٍ وأمانة.

القيادة تُبنى قبل أن يأتي المنصب

لم يصبح أبو بكر رضي الله عنه رجل دولة فجأة يوم تولى الخلافة؛ فقد تربى على المسؤولية في حياة النبيﷺ ، وشهد معه المواطن الكبرى، وكان حاضرًا في مواقع الثقة والقيادة.

وتذكر روايات السيرة أنه في غزوة بني المصطلق، دفع النبي ﷺ إليه لواء المهاجرين، بينما كان لواء الأنصار مع سعد بن عبادة رضي الله عنه.[28]

فالخلافة لم تصنع أبا بكر، وإنما كشفت ما صنعته سنوات طويلة من الصحبة، والجهاد، وتحمل المسؤولية.

هكذا سادوا: لا ينتظر الرجل المنصب ليصبح قائدًا؛ بل يصنع نفسه قبل أن يأتيه المنصب..

(28) ابن هشام، السيرة النبوية، غزوة بني المصطلق، في خبر الألوية؛ وهو من أخبار السيرة.

قلبٌ لا يعرف اليأس بعد الغار

كانت ليلة الغار لحظة خوف لا تشبهها لحظة؛ مطاردةٌ قريبة، وعدوٌّ يبحث عنهما، وطريقٌ لا يملك صاحبه فيه إلا يقينه بالله.

هناك تعلّم أبو بكر الصديق رضي الله عنه درسًا بقي معه بعد ذلك عمرًا كاملًا.

فقد رُوي عنه أنه قال:"ما دخلني إشفاقٌ من شيء، ولا دخلني في الدين وحشةٌ إلى أحدٍ بعد ليلة الغار؛ فإن رسول الله ﷺ حين رأى إشفاقي عليه وعلى الدين قال لي :هوِّن عليك؛ فإن الله قد قضى لهذا الأمر بالنصر والتمام".[29]

منذ تلك اللحظة تغيّر معنى الخوف عنده.

لم تعد كثرة الأعداء، ولا اضطراب الأحوال، ولا قلة الناصر سببًا لليأس؛ لأنه حمل في قلبه وعدًا أسبق من كل أزمة :أن هذا الدين له تمام ونصر.

(29) نُقل في بعض كتب المناقب؛ ولم أقف على إسناد تقوم به الحجة لهذا اللفظ، فيُراجع قبل النشر.

ولذلك حين مات النبي ﷺ ، وارتدت قبائل، واضطربت الجزيرة، لم ير أبو بكر نهايةً تقترب، بل رأى اختبارًا سيمضي كما مضت ليلة الغار.

فالذي تعلّم في الغار أن النصر قد يكون أقرب ما يكون حين تبدو الأسباب كلها بعيدة، لا تكسره الشدائد بعد ذلك بسهولة.

وهذه من أعظم ثمار اليقين: أن لا يمنعك من رؤية الخطر، لكنه يمنع الخطر من أن يملك قلبك.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: خرج من الغار بقلبٍ تعلّم أن الله إذا وعد أتم، فواجه بعد ذلك الفتن بعين ترى الواقع، وقلب لا يعرف اليأس.

المحور الثاني :القرآن والزهد وحسن الخلق

قوة قلبه من قوة تمسكه بالقرآن

كان أبو بكر رضي الله عنه شديد الصلة بكتاب الله؛ حتى وصفته عائشة رضي الله عنها بأنه رجلٌ بكّاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

وكان يقرأ ويصلي في فناء داره بمكة، فيقف نساء المشركين وأبناؤهم يستمعون إليه، حتى خشيت قريش من أثر قراءته في القلوب.

وحين مات رسول الله ﷺ واضطربت المدينة وذهل رجال كبار من هول المصيبة، خرج أبو بكر فثبّت الناس بكتاب الله، وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.[30]

فالقرآن الذي أرقَّ قلبه في لحظات السلم، هو نفسه الذي ثبَّت قلبه عند أعظم المصائب.

تلك نفسٌ ربّاها القرآن.

---

(30) البخاري (1241–1242)، و(3667–3668)، خبر وفاة النبي ﷺ وتلاوة الآية.

فراسة المؤمن من بصيرته

خطب النبي ﷺ ذات يوم عن عبدٍ خيّره الله بين الدنيا وما عنده، فاختار ما عند الله؛ فبكى أبو بكر رضي الله عنه، بينما لم يدرك كثير ممن حوله سبب بكائه.[31]

لقد فهم أن رسول الله ﷺ إنما يُشير إلى نفسه.

وتجلّت بصيرته هذه مرةً أخرى يوم وفاة النبي ﷺ ؛ فبينما أذهلت الفاجعة الصحابة، ثبت أبو بكر وخرج إلى الناس يتلو :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[32]

فما أن سمع عمر رضي الله عنه الآية حتى خارت قواه وسقط إلى الأرض، وعلم أن رسول الله ﷺ قد مات حقا.

هكذا كان الصِّدِّيق رجل يبصر ما وراء الإشارة، ويثبت حين تذهل العقول.

---

(31) البخاري (3904)، ومسلم (2382)، في بكاء الصديق عند تخيير العبد.

(32) البخاري (1241–1242)، و(3667–3668)، خبر وفاة النبي ﷺ وتلاوة الآية.

إذا جاء أمر الله اطمأنت النفس

كان أبو بكر رضي الله عنه ينفق على مِسطح بن أُثاثة، فلما خاض مسطح في حديث الإفك الذي أصاب عائشة رضي الله عنها، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه بعد ذلك.[33]

فنزل قول الله تعالى :﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فقال أبو بكر:"بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي".[34]

وأعاد إليه نفقته وقال إنه لن يقطعها عنه أبدًا.

لم ينتظر حتى يهدأ جرح الأب؛ فما إن سمع أمر الله حتى قدَّمه على ألم نفسه.

هكذا سادوا: كانوا أسرع إلى طاعة الوحي من انتصارهم لأنفسهم.

(33) البخاري (4750)، ومسلم (2770)، في نفقة مِسطح ونزول آية العفو.
(34) البخاري (4750)، ومسلم (2770)، في نفقة مِسطح ونزول آية العفو.

يرضى بجوار الله

من أعظم ما يكشف قوة اليقين في أبي بكر الصديق رضي الله عنه موقفه حين اشتد أذى قريش للمسلمين، وخرج يريد الهجرة، فلقيه ابن الدغنة، وكان سيدًا مطاعًا في قومه، فقال له: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج، ثم أعاده إلى مكة في جواره وحمايته.[35]

قبلت قريش أن يبقى أبو بكر ما دام يعبد ربه في داره ولا يجهر بصلاته وقراءته، لكنه كان رجلًا بكّاءً إذا قرأ القرآن، لا يملك عينيه، فبنى لنفسه مسجدًا في فناء داره وأخذ يصلي ويقرأ فيه.

فخافت قريش أن يتأثر به نساؤها وأبناؤها، وضغطت على ابن الدغنة ليمنعه من الجهر بعبادته.

وجاءه ابن الدغنة يخيّره :إما أن يلتزم بما اشترطته قريش، وإما أن يرد إليه جواره.

(35) البخاري (3905)، قصة جوار ابن الدغنة وردّه.

وهنا قال الصديق رضي الله عنه كلمته التي تختصر قلبًا كاملًا: "فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل".[36]

لم يكن يجهل ما يعنيه التخلي عن حماية رجل ذي مكانة في مجتمع تحكمه العصبيات، لكنه عرف أن الحماية إذا أصبحت ثمنًا لإخفاء الحق، فليست حماية تستحق أن تُشترى.

إنه اليقين حين يتحول من معنى في القلب إلى قرار :أن يكون الله كافيًا لعبده، ولو خفَّت حوله أسباب الناس.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يجعل أمنه أغلى من دينه، ولم يقبل جوارًا يضيّق عليه عبادته، واختار أن يبقى حرًّا في طاعة الله ولو فقد حماية البشر؛ فقالها مطمئنًا:"وأرضى بجوار الله عز وجل".

من استغنى بالله لم تُذلَّه الحاجة للحماية

لما اشتد أذى قريش، أجار ابنُ الدغنة أبا بكر رضي الله عنه، على أن يعبد ربَّه دون أن يجهر بقراءته أمام الناس.

(36) البخاري (3905)، قصة جوار ابن الدغنة وردّه.

لكن أبا بكر لم يحتمل أن يحبس القرآن في داره، فلما خُيِّر بين تقييد جهره بالدين وبين رد الجوار قال: "فإني أردُّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله".[37]

لم يكن يبحث عن الخطر، لكنه لم يشترِ الأمن بثمنٍ من دينه .ومن استغنى بالله أغناه وأيده ونصره.

المال في يد المؤمن .. لا في قلبه

كان أبو بكر رضي الله عنه ذا مال وتجارة، فلما جاء الإسلام صار ماله بابًا من أبواب النصرة.

اشترى المستضعفين المعذَّبين وأعتقهم، ومنهم بلال رضي الله عنه، ثم بلغ بذله ذروته يوم تجهيز جيش العُسرة، فجاء بماله كله، فقال له النبي ﷺ :"ما أبقيتَ لأهلك؟"، قال:" أبقيتُ لهم الله ورسوله".[38]

وكان عمر رضي الله عنه قد جاء بنصف ماله طمعًا أن يسبق أبا بكر، فلما رأى صنيعه قال:"لا أسبقه إلى شيء أبدًا".[39]

(37) البخاري (3905)، قصة جوار ابن الدغنة وردّه.
(38) أبو داود (1678)، والترمذي (3675)؛ وفي الخبر أصل الصدقة.
(39) أبو داود (1678)، والترمذي (3675)؛ وفي الخبر أصل الصدقة.

لم يكن المال عنده غاية بل أمانة تُبذل في مقامات خدمة الدين ونصرته.

هكذا يكون الزهد :أن تملك المال، ولا يملكك المال.

المسابقة بالخيرات تملأ القلب والسيرة

لم يكن سبق أبي بكر رضي الله عنه في الإسلام مجرد تـاريخ مبكـر لإسـلامه، بل كانت المسابقة إلى الخير خُلُقًا لازمًا له.

سأل النبي ﷺ أصحابه يومًا:"من أصبح منكم اليوم صائمًا؟"، فقال أبو بكر: أنا.[40]

قال:"فمن تبع منكم اليوم جنازة؟"، قال أبو بكر: أنا.

قال:"فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟"، قال: أنا.

قال:"فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟"، قال: أنا.

فقال النبيﷺ :"ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة".[41]

ولما ذكر النبي ﷺ أبواب الجنة، سـأله أبـو بكـر :هـل يُـدعى أحـد مـن تلـك الأبواب كلها؟ فقال له ﷺ:"نعم، وأرجو أن تكون منهم".[42]

(40) مسلم (1028)، باب فضائل أبي بكر.
(41) مسلم (1028)، باب فضائل أبي بكر.

كان سابقًا في التصديق، والإنفاق، ونصرة المستضعفين، والجهاد، وأبواب الخير.

بعض الناس يعرف الخير، وبعضهم يحبه، وقليلٌ إذا فُتح له بابه كان من أول الداخلين.

الحقُّ أولًا، ولو ثُقُل

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه شديد الصدق مع نفسه قبل أن ينصح غيره؛ فلم يكن يرى أن صلاح القول يكفي إذا خالفه العمل، ولا أن الدعوة إلى الخير تعفي صاحبها من أن يكون أول العاملين به.

ومن كلماته في ذلك:"من أمر بالحق وعمل بالباطل، وأمر بالمعروف وعمل بالمنكر، يوشك أن تنقطع أمنيته وأن يحبط عمله".[43]

فالنصيحة عنده لم تكن كلمات تُقال للناس من بعيد، بل مسؤولية تبدأ من صاحبها .ومن يأمر بالحق ثم يخالفه، يعرّض نفسه لأن تصبح كلماته حجة عليه بدل أن تكون له.

---

(42) البخاري (1897)، ومسلم (1027)، في الدعوة من أبواب الجنة.

(43) المعجم الكبير للطبراني.

ولهذا كانت وصيته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الموت من أبلغ ما يبين ميزان الصديق في فهم الدنيا والآخرة، فقال:"إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم".[44]

فالحق قد يكون شاقًا على النفس، وقد يحرم الإنسان بعض ما يشتهي، وقد يحمّله من التكاليف ما لا تميل إليه طباعه؛ لكن هذا الثقل نفسه هو الذي يصنع ثقل الميزان يوم القيامة.

ثم قال:"وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم".[45]

وكأنها قاعدة تختصر الطريق كله :ليس كل ما خف على النفس خيرًا، ولا كل ما ثقل عليها شرًا؛ فالحق قد يثقل اليوم، لكنه يثقل الميزان غدًا، والباطل قد يكون سهلًا اليوم، لكنه لا يترك لصاحبه إلا الخفة يوم الحساب.

(44) وصيته لعمر: ابن أبي شيبة، المصنف، خبر استخلاف عمر.

(45) وصيته لعمر: ابن أبي شيبة، المصنف، خبر استخلاف عمر.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأنه لم يجعل الحق تابعًا للراحة، بل جعل الراحة تابعة للحق، وربّى من بعده على أن أثقل الطرق على النفس قد يكون أعظمها وزنًا عند الله.

حكمةٌ تُوجز الطريق

لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه كثير التكلّف في الكلام، ولكن كلماته القليلة كانت تحمل معاني واسعة؛ يضع بها للإنسان ميزانًا يعرف به نفسه، ويهديه إلى موضع الخلل قبل أن يقع فيه.

ومن دقة نصحه قوله في المشورة:"إذا استشرت فاصدق الحديث تُصدَق المشورة، ولا تُحزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك".[46]

فهو لا يحمّل المستشار خطأ القرار إذا أخفى عنه صاحب الأمر بعض الحقيقة؛ إذ لا يمكن أن تكون المشورة صائبة إذا بُنيت على معلومات ناقصة. وفي كلمات قليلة علّم أن الصدق ليس خُلُقًا فحسب، بل أساسٌ لحسن الرأي وصواب القرار.

(46) نقله مُحَمَّد رضا، «أبو بكر الصديق»، فصل حكمه وكلماته؛ لم أقف على إسناد مسند للفظ.

وكان شديد الورع في الكلام في دين الله؛ فقال: "أي سماء تظلنـي؟ وأي أرض تقلني؟ إذا قلت في كتاب الله بغير علم".[47]

فالعلم عنده أمانة، والجرأة على القول بغيـر علـم ليسـت شـجاعة، بـل بـابٌ يخشاه المؤمن على نفسه.

ومن جوامـع حكمتـه قولـه:"أكـيس الكـيْس التقـوى، وأحمـق الحَمَـق الفجـور، وأصدق الصدق الأمانة، وأكذب الكذب الخيانة".[48]

عبارات قصيرة، لكنها تعيد تعريـف الـذكاء والحمـق والصـدق والكـذب بميـزان الآخرة، لا بميزان المنفعة العاجلة.

وقال أيضًا:" ثلاث من كن فيه كن عليه :البغي والنكث والمكر".[49]

فمن ظلم، أو نقض، أو مكر، قد يظن أنـه يضـر غيـره، بينمـا يحمـل في فعلـه أسباب هلاكه هو.

(47) ابن أبي شيبة، المصنف (30731)، بإسناد منقطع؛ وانظر ابن كثير، تفسير عبس: 31.
(48) البيهقي، السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، من خطبة الصديق؛ وانظر ابن هشام، السيرة، خطبته.
(49) مما ينسب للصديق.

وكانت وصاياه تجمع بين الخوف والرجاء والعمل؛ فكان يحث على تقوى الله، والمسارعة في الخيرات، وألا يضيّع الإنسان أجله وهو مشغول بغير نفسه وآخرته.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم تكن حكمته في كثرة الكلام، بل في كلمةٍ تصيب موضع الداء، ونصيحةٍ ترد الإنسان إلى ميزان التقوى، وعبارةٍ قصيرة تبقى في القلب طويلًا.

لا يأسَ مع الذنب ولا أمانَ مع الطاعة

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعرف داءين يفسدان على الإنسان سيره إلى الله :اليأس إذا أذنب، والاغترار إذا أحسن.

ولهذا جاءت كلمته جامعةً بين الخوف والرجاء: "إن الله يغفر الكبائر فلا تيئسوا، ويعذب على الصغائر فلا تغتروا".[50]

فالمذنب قد ينظر إلى كثرة ذنوبه حتى يظن أن باب العودة قد أُغلق، فيقنط من رحمة الله، وربما دفعه اليأس إلى مزيد من البعد.

(50) يُنسب إلى الصديق.

والعابد قد ينظر إلى صلاته وصيامه وصلاحه، فيأمن مكر الله، ويستصغر ذنوبه، ويرى نفسه خيرًا ممن حوله.

فجاء ميزان الصديق رضي الله عنه يعالج الطرفين معًا:

لا تجعل عِظم ذنبك أكبر في قلبك من رحمة الله، ولا تجعل صِغر ذنبك سببًا للاستهانة به.

إنه فقه دقيق للنفس؛ فهي تحتاج إلى الرجاء حتى لا تنكسر، وإلى الخوف حتى لا تنفلت .وإذا غلب أحدهما وحده اختل الطريق.

ولهذا لم تكن تربيته قائمة على التخويف وحده، ولا على التطمين المجرد؛ بل على قلب يسير إلى الله بين رجاءٍ يمنعه من القنوط، وخوفٍ يمنعه من الغرور.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأنه عرف كيف يضع القلب بين جناحين؛ فلا يسقطه اليأس، ولا يخدعه الأمان، ويبقى دائمًا محتاجًا إلى رحمة الله خائفًا من التقصير.

أخطر ما تخشاه نفسك

لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينظر إلى الفتن وكأنها تأتي الإنسان دائمًا من الخارج؛ من عدو، أو خصم، أو ظرف صعب .بل كان يعرف أن أقرب أبواب الخطر إلى المرء قد يكون نفسه التي بين جنبيه.

ولذلك قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أوصاه بالخلافة:[51]

"إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك".[52]

كلمة قصيرة، لكنها تكشف فقهًا عميقًا في قيادة النفس والناس.

فقد يستطيع الرجل أن ينتصر على خصمه، ثم تهزمه شهوة .وقد يحسن إدارة دولة، ثم يفسد عليه عمله حبُّ المدح أو العجب أو الغضب أو طلب المكانة .وقد يرى أخطاء الآخرين بوضوح، بينما تعميه نفسه عن خطئه هو.

ولهذا بدأ الصديق التحذير من الداخل قبل الخارج.

(51) وصية الصديق لعمر مروية في كتب الآثار، ومنها ابن أبي شيبة، المصنف.
(52) وصية الصديق لعمر مروية في كتب الآثار، ومنها ابن أبي شيبة، المصنف.

فالمنصب لا يحمي صاحبه من الهوى، والعلم لا يعصمه من الكِبر، والصلاح السابق لا يعطي الإنسان ضمانًا ألا يزيغ .وكلما عظمت المسؤولية، كان احتياج المرء إلى محاسبة نفسه أشد.

وما أبلغ أن تكون هذه وصية خليفة لخليفة: لم يبدأ معه بعدو يتربص بالدولة، ولا بقبيلة قد تتمرد، ولا بمالٍ ينبغي حفظه؛ بل بدأ بالعدو الأقرب الذي يصحبه حيث ذهب :نفسه.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: عرف أن إصلاح الأمة يبدأ من رجلٍ لا يأمن على نفسه، وأن من ملك زمامها كان أقدر على حمل الأمانة، ومن غلبته نفسه فلن تنفعه قوةُ على غيره.

مروءةٌ سبقت الإسلام فزكّاها

لم يأتِ الإسلام أبا بكر الصديق رضي الله عنه فيجد نفسًا غارقةً في أدران الجاهلية، بل وجد رجلًا حفظ من مروءته ما عصمه من كثير من عادات قومه، ثم جاء الوحي فرفع تلك المروءة إلى مقام الإيمان.

فقد عُرف عنه أنه لم يشرب الخمر في الجاهلية ولا في الإسلام .ولما سُئل عن ذلك قال:"كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي؛ فإن من شرب الخمر كان

مضيعًا لعرضه ومروءته" . فتركها قبل نزول تحريمها؛ لا لأن قومه حرموها، بل لأن فطرته كانت تستقبح ما يذهب بالعقل ويهدر كرامة الإنسان.[53]

وتروي كتب السيرة والفضائل عنه كذلك أنه قال:"ما سجدت لصنم قط"، وأنه حين أُدخل في صغره على الأصنام خاطبها فلم تجبه، فازداد استخفافًا بعجزها.[54]

وهنا تظهر قيمة المروءة قبل الهداية: فقد كان في أبي بكر رضي الله عنه عقل يزن الأمور، ونفس تأبى الدناءة، وفطرة لا تستسلم بسهولة لما ألفه الناس لمجرد أنه موروث.

فلما جاء الإسلام، لم يحتج إلى أن يهدم فيه شخصيةً ثم يبني أخرى، بل أخذ خصالًا موجودة فيه – حفظ العرض، صيانة النفس، رجاحة العقل، معرفة الناس، والوفاء – فطهّرها من حظ النفس، وربطها بالله، وجعلها كلها في خدمة الدين.

(53) ورد في كتب التراجم.

(54) خبر «ما سجدت لصنم قط» وقصة مخاطبة الصنم في كتب الفضائل.

فالمروءة وحدها لا تكفي للهداية، لكنها إذا لقيت الإيمان أصبحت قوة عظيمة؛ والأخلاق الحسنة إذا لم تتصل بالله بقيت ناقصة، فإذا اتصلت به صارت عبادة.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: كانت فيه مروءة تمنعه من الخمر، ونفس تأنف من عبادة ما لا يضر ولا ينفع، فلما أشرق عليه نور الإسلام، لم يطفئ خصاله الأولى، بل أكملها وزكّاها، حتى صارت كل موهبته وكل خلق فيه لله.

المحور الثالث: الرحمة واللين والمودة

رقَّة القلوب لا تعني الضعف

كان أبو بكر رضي الله عنه رقيق القلب، كثير البكاء والخشوع، لكن رقته لم تكن يومًا ضعفًا.

ولذلك لما اضطربت الجزيرة بعد وفاة النبي ﷺ ثبت على قتال مانعي الزكاة ولم يتزحزح، وقال" :والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة"، وقال :"والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها" . وبقيت كلمته الشهيرة: "أينقص الدين وأنا حي؟".[55]

حتى قال عمر رضي الله عنه بعد أن رأى ثباته:"فعرفتُ أنه الحق".[56]

قلبٌ رقيق في مقامات الخشوع والصلاة والرفق بالمسلمين، ولكنه لنصرة الحق وإقامة الدين لا ينهزم.

(55) البخاري (1399–1400)، ومسلم (20)، في قتال مانعي الزكاة.
(56) البخاري (1399–1400)، ومسلم (20)، في قتال مانعي الزكاة.

قلبٌ رقيقٌ بالمؤمنين

قد يظن بعض الناس أن قوة القائد لا تكتمل إلا بقسوة القلب، لكن أبا بكر رضي الله عنه جمع بين الحزم العظيم ورقة تكاد تفيض من قلبه.

ومن كلماته:"من سرَّه أن يظله الله تعالى من نار جهنم يوم القيامة فليكن رقيق القلب، بالمؤمنين رحيمًا".[57]

فالرحمة عنده لم تكن ضعفًا، وإنما عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله .أن يكون قلبه لينًا لإخوانه، يشعر بآلامهم، ويحمل همهم، ويعاملهم بما يحب أن يعامله الله به يوم القيامة.

وكان من أثر هذه الرقة أنه كان كثير البكاء عند قراءة القرآن؛ حتى إن قريشًا خافت من تأثر النساء والأبناء بقراءته، لما كان يسمع من خشوعه وبكائه، فلما طُلب منه أن يخفي عبادته أو يرد جوار ابن الدغنة، قال في ثبات:"فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل".

(57) نُقل في كتب الرقائق.

ومن رقته كذلك أنه كان يفتح للناس باب الرجاء دون أن يفتح لهم باب الغرور، فقال:"إن الله يغفر الكبائر فلا تيئسوا، ويعذب على الصغائر فلا تغتروا".[58]

إنها رحمة موزونة: لا تقنّط المذنب، ولا تؤمّن الغافل؛ بل تأخذ بيده بين الرجاء والخوف.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: قلبه ألين القلوب للمؤمنين، وعزمه من أشد العزائم عند الشدائد؛ فلم تمنعه القوة من الرحمة، ولم تمنعه الرحمة من الثبات على الحق.

لينٌ بلا ضعف ..وحزمٌ بلا ظلم

كان أبو بكر رضي الله عنه رقيق القلب، ولكنه لم يكن ضعيف الإرادة .وهذه من أصعب المعادلات في القيادة :أن يبقى القلب رحيمًا، بينما يبقى القرار قويًا.

ومن كلماته الجامعة:"لا يصلح هذا الأمر إلا شدةٌ في غير عنف، ولينٌ في غير ضعف".[59]

(58) مرويٌّ من كلام الصدّيق في كتب الحكم.

وقد ظهرت هذه الصفة بأوضح صورها بعد وفاة النبي ﷺ ، حين اضطربت الجزيرة وامتنعت قبائل عن أداء الزكاة .رأى بعض الصحابة أن يُتألَّف الناس ويُرفق بهم، لكن أبا بكر أدرك أن القضية ليست مالًا يؤخذ، بل أصلًا من أصول الدين لا يجوز أن يهدم.

فلما قيل له أن يرفق، أجاب عمر رضي الله عنه بكلمات تكشف مقدار عزمه : "أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ ...أينقص وأنا حي؟".[60]

لم يكن الحزم عنده غضبًا للنفس، ولا استعراضًا للقوة؛ كان دفاعًا عن أصل يراه حقًا.

ولهذا لم تتعارض رحمته مع شدته؛ فالرحمة في غير موضعها قد تتحول إلى تفريط، كما أن الحزم بلا عدل يتحول إلى ظلم.

هكذا سادوا: عرفوا متى يلينون، ومتى يقفون حتى النهاية.

(59) ابن عبد البر، بهجة المجالس، في حكم منسوبة للصديق.

(60) ينظر ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 11 هـ، في محاورة أبي بكر وعمر بشأن الزكاة.

قوةُ هذّبتها المروءة

لم تكن رقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه تعني أنه خالٍ من الحدة، ولا كان لينُه عجزًا عن الغضب؛ بل كان صاحب نفس قوية، سريعة التأثر، لكنها مؤدبة بالإيمان، محكومة بالمروءة، لا تنفلت حيث تشاء.

وهنا تظهر عظمة تهذيب النفس :فليس الفضل أن يولد الإنسان بطبع هادئ فحسب، بل أن يعرف مواضع قوته وضعفه، ثم يربي نفسه حتى تصبح عاطفته خادمةً للحق، لا سيدةً عليه.

كان الصديق رضي الله عنه رقيقًا، بكّاءً عند القرآن، سريع التأثر، لكنه إذا مسّ الأمر دينًا أو مروءةً أو حقًا، ظهرت فيه قوة أخرى؛ قوة لا تقوم على الانفعال، بل على وضوح الميزان.

فالغضب عنده لم يكن للنفس، ولا لإثبات الذات، ولا لخصومة شخصية؛ إنما كان يظهر حين تنتهك حرمة، أو يضيع حق، أو يُخشى على الدين.

وهذه منزلة دقيقة: أن تبقى حرارة القلب حاضرة، لكن زمامها في يد العقل والإيمان. فلا يتحول اللين إلى ضعف، ولا تتحول القوة إلى فظاظة.

كثيرون يظنون ضبط النفس برودًا، أو يظنون الحدة قوة؛ أما الصديق رضي الله عنه فجمع بين الأمرين على ميزان أدق :قلب حي، ونفس منضبطة، وغضب يعرف سببه وحدوده.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم ينتصر على خصومه قبل أن ينتصر على نفسه؛ فهذّب طبعه، وضبط انفعاله، وجعل قوته في خدمة الحق، لا في خدمة الهوى.

حتى الرفض عنده أدب

ليست الأخلاق فيما نقوله حين نرضى فقط، بل تظهر حقيقتها حين نرفض، وحين نختلف، وحين نملك أن نؤذي بالكلمة ثم نختار ألطف منها.

ومن جميل ما يُروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سمع رجلًا يقول لبائع :"لا عافك الله"، فكره له هذه العبارة، وأرشده إلى أن يقول :"لا، وعافاك الله".[61]

(61) ورد في كتب الآداب والمناقب.

فالمعنى في الحالين رفض، لكن الفرق كبير بين رفضٍ يخـرج مشـوبًا بالـدعاء على الناس، ورفضٍ يبقى معه اللسان طيبًا والقلب نقيًا.

وهذه من دقة أخلاق الصديق رضي الله عنه :لـم يكـن يـرى الأدب زينـةً زائـدة على الكلام، بل جزءًا من صلاح الإنسان نفسه .فاللسان الذي يعتـاد الخشـونة في الصغير، يسهل عليه أن يجاوز الحد في الكبير.

كم من خصومة بدأت من كلمة كان يمكن أن تُقال بأحسن منها، وكم من قلب انكسر لأن صاحبه ظن أن وضوح الموقف يحتاج إلى قسوة العبارة.

أما الصديق فكان يعلّم أن الإنسان يستطيع أن يكون حازمًا دون أن يكون فظًّا، وأن يقول "لا" دون أن يحمل معها أذى، وأن يحفـظ كرامـة مـن أمامـه ولـو لـم يوافقه.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأن تهذيب النفس عنده بلـغ حتـى اختيـار الكلمة؛ فلا يخرج من فمه ما لا حاجة إليه من أذى، ويجعل حسن الخلق حاضرًا حتى في لحظة الرفض.

المودّة من أدوات القيادة

لم تكن قيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه قائمة على الهيبة وحدها، بل كان فيها شيء آخر لا يقل أثرًا: الألفة.

فقد كان ودودًا، حسن المعاشرة، قريبًا من الناس، يعرف كيف يدخل إلى القلوب بلا تكلف، ويكسب ثقتها قبل أن يطلب منها الطاعة أو النصرة.

وهذه خصلة عظيمة في القائد؛ لأن الناس قد يهابون من يخشونه، لكنهم لا يبذلون له قلوبهم إلا إذا أحبوه واطمأنوا إليه.

كان الصديق رضي الله عنه يجمع بين مكانة عالية ونفس سهلة القرب، فلا يشعر من أمامه أنه يقف أمام رجل يتعالى عليه، بل أمام رجل يعرف قدر الناس ويحسن صحبتهم.

ولعل هذا يفسر جانبًا من سرعة استجابة كثيرين له، ومن ثقة الصحابة به في أدق المواقف؛ فالمودة الصادقة تصنع رصيدًا لا تصنعه الأوامر وحدها، وتبني من جسور الثقة ما لا تبنيه السلطة.

إن القيادة ليست دائمًا صوتًا مرتفعًا وقرارًا حاسمًا؛ أحيانًا تبدأ بابتسامة، وبحسن عشرة، وبقدرة على أن يشعر الناس أنك منهم ولست فوقهم.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يدخل القلوب بالرهبة، بل بـالمودة؛ ولـم يكن قربه من الناس ينقص من هيبته، بل كان من أسبابها.

يكتم السر ويحفظ المقامات

من تمام المروءة أن يعرف الإنسان ما يُقال، وما لا يُقال؛ وما يُحفظ، ولـو ترتـب على حفظه أن يُساء فهمه.

وقد كان أبـو بكـر الصـديق رضـي اللـه عنـه مـن أصـدق النـاس حفظًـا للسـر، وأشدهم صيانةً لحرمة الصحبة .لم يكن يرى الأمانة في المال وحـده، بـل في الكلمة أيضًا؛ فإذا استودعه رسول اللـه ﷺ أمـرًا، بقـي عنـده مصـونًا لا يخرجـه ضغط، ولا عتاب، ولا رغبة في تبرئة النفس.

وهذه منزلة عالية من أخلاق الرجال :أن تحتمل أن يلومك الناس، ولا تكشف ما ليس لك أن تكشفه؛ وأن تؤثر الوفاء بالعهد على راحة النفس من سوء الظن.

فالسر عند الكريم ليس خبرًا يملكه فيتصرف فيه كيف شاء، بل أمانـة حملهـا، وحدودٌ لا يتجاوزها.

ولذلك كان حفظ المقامات جزءًا من حكمته؛ يعرف قدر رسول اللهﷺ ، ويعرف قدر الصحبة، ويعرف أن القرب من الكبار ليس بابًا للتفاخر بما يُعرف من شؤونهم، بل بابًا لمزيد من الصيانة والستر.

كم من علاقة هدمها إفشاء سر، وكم من ثقة ضاعت لأن صاحبها لم يصبر على كلمة أو عتاب، فأخرج ما كان الواجب أن يبقى في صدره.

أما الصديق رضي الله عنه فكان وفيًّا حتى في الصمت.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأن الأمانة عنده لم تكن فيما تحمل اليد فقط، بل فيما يحفظه القلب ويصونه اللسان؛ فكتم ما يجب كتمه، وحفظ المقامات، وآثر الوفاء على أن ينتصر لنفسه.

أخوّةُ في الله فوق كل رابطة

لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه يفهم الأخوّة على أنها كلمات محبة ومجاملة، بل رابطةٌ لها حقوق في القلب والعمل، تبدأ من الدعاء، وتبلغ غايتها حين يُقدَّم الحق على أقرب الروابط.

ومن كلماته:"إن دعاء الأخ لأخيه في الله عز وجل يُستجاب".[62]

فالأخوّة عنده لا تقتصر على أن تحسن إلى أخيك أمامه، بل أن تحمله معك إلى الله وهو غائب؛ تذكره في دعائك، وتسأل له الخير حيث لا يراك ولا يشكرك.

وهذه من أنقى صور المحبة: أن تريد لأخيك الخير دون مقابل، وأن يبقى نصيبه من قلبك حاضرًا حتى في خلواتك مع الله.

لكن الصديق رضي الله عنه كان يعرف أيضًا أن الأخوّة الإيمانية ليست عاطفة رخوة تذيب الحدود بين الحق والباطل.

فقد قال له ابنه عبد الرحمن بعد إسلامه: إنه رآه يوم بدر فعدل عنه ولم يقتله، فقال له أبو بكر رضي الله عنه :لو رأيتك ما عدلت عنك.[63]

لم يكن ذلك جفاءً في الأبوة، بل وضوحًا في ترتيب الولاءات عند لحظة الصدام؛ فحين تصبح الرابطة العائلية في مواجهة العقيدة، لا يجوز أن تتحول المحبة إلى تنازل عن الحق.

(62) أصل الدعاء للأخ بظهر الغيب ثابت في مسلم (2733).

(63) ابن كثير، البداية والنهاية، ذكر أخبار بدر وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ من روايات السيرة.

وهنا يظهر توازن عجيب :يدعو لأخيه في الله بظهر الغيب، ويحب لـه الخيـر، لكنه لا يجعل رابطة الدم فوق رابطة الإيمان.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: رقّ قلبه للمؤمنين حتى حملهم في دعائه، وثبت قلبه على العقيدة حتى لم يجعل القرابة حجابًا بينه وبين الحق.

المحور الرابع: الخلافة والعدل وبناء الدولة

الأمانة قبل الهيبة

حين تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة، لم يتعامل معها باعتبارها رفعة شخصية، ولا بابًا للتعظيم، بل أمانةً يخشى أن يُسأل عنها بين يدي الله.

وفي خطبته الأولى وضع للأمة ميزانًا عظيمًا للحكم، فقال: "إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني"، ثم قرر أن "الصدق أمانة، والكذب خيانة"، وأن الضعيف قوي عنده حتى يأخذ له حقه، والقوي ضعيف حتى يؤخذ منه الحق.[64]

لم يبدأ عهده بإظهار القوة، بل بإعلان المسؤولية .ولم يطلب من الناس طاعة مطلقة، وإنما قال:"أطيعوني ما أطعت الله ورسوله".[65]

وهذا من أعظم أسرار القيادة الراشدة :أن يعرف الحاكم أن المنصب لا يجعله فوق الحق، بل يجعله أكثر مطالبة به.

(64) ابن هشام، السيرة النبوية، خطبة أبي بكر بعد البيعة؛ والطبري، تاريخه، حوادث سنة 11 هـ.

(65) ابن هشام، السيرة النبوية، خطبة أبي بكر بعد البيعة؛ والطبري، تاريخه، حوادث سنة 11 هـ.

فلم يكن أبو بكر بحاجة إلى أن يصنع حول نفسه هالة من القداسة؛ كانت هيبته نابعة من صدقه وعدله، ومن علم الناس أن الحق عنده أعلى من القريب والبعيد.

هكذا سادوا: حملوا السلطة كأمانة، لا كغنيمة، وجعلوا ميزان الحق فوق الأشخاص والمناصب.

الخلافة خدمة الناس والرحمة بهم

كان أبو بكر رضي الله عنه رحيمًا بالناس قبل الخلافة وبعدها، كيف لا وقد قال فيه النبي ﷺ :"أرحم أمتي بأمتي أبو بكر".[66]

فلما تولى أمر المسلمين، أعلن منذ أول أيام خلافته منهجه في التعامل معهم فقال:"الضعيف فيكم قوي عندي حتى أُرجِع عليه حقه، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه".

(66) الترمذي (3790)، وابن ماجه (154)، حديث «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر».

وكان رضي الله عنه يحلب لأهل الحي أغنامهم، فلما تولى الخلافة ظنت جارية أنه لن يعود إلى ذلك، فقال:"بلى، لعمري لأحلبنَّها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه".[67]

فالخلافة عنده لم تكن رفعةً فوق الناس، بل مسؤوليةً في خدمتهم وحفظ حقوقهم.

والعظمة أن تكبر مسؤوليتك، ولا تكبر نفسك بل تزيدك رحمة وخشية وافتقارًا.

تواضعٌ لم تغيّره الخلافة

قد يغير المنصب صاحبه؛ فيبتعد عمن عرفهم، وتتبدل عاداته، ويشعر أن ما كان يفعله بالأمس أصبح دون مقامه.

لكن أبا بكر رضي الله عنه دخل الخلافة وبقي هو أبو بكر.

(67) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ترجمة أبي بكر (ط. دار صادر، 186/3).

كان قبلها يحلب أغنام أهل الحي في السنح، فلما بويع بالخلافة ظنت جارية أن ذلك سيتوقف، فسمعها فقال ما معناه إنه سيظل يحلب لهم، ورجا ألا يغيره ما دخل فيه عن خلق كان عليه .وبقي على ذلك ما أقام في السنح.[68]

وكان إذا سقط خطام ناقته نزل فأخذه بنفسه، فإذا قيل له: لو أمرتنا أن نناولك إياه، ذكر أن رسول الله ﷺ أمرهم ألا يسألوا الناس شيئًا.[69]

لم يفهم السيادة بأنها كثرة من يخدمونه، بل بقدرته على أن يبقى عبدًا لله لا تغيره مكانته بين الناس.

والتواضع هنا ليس كلمات تقال أمام العامة، بل سلوك يومي؛ أن يصبح المرء خليفة، ثم لا يرى الأعمال البسيطة أقل من شأنه.

هكذا سادوا: لأن المنصب رفع مسؤولياتهم، لكنه لم يرفع نفوسهم فوق الناس.

(68) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ترجمة أبي بكر (ط. دار صادر، 186/3).
(69) ورد النهي عن سؤال الناس في مسلم (1043).

القوي ضعيف حتى يؤدي الحق

العدل سهل في الخطب، لكنه يُختبر حين يكون صاحب الحق ضعيفًا، ومن عليه الحق قويًا ذا نفوذ ومكانة.

وهنا وضع أبو بكر رضي الله عنه قاعدته الواضحة منذ أول أيام الخلافة: "والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه ...والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه".[70]

لم يكن ميزانه في الناس ما يملكون من جاه، ولا ما تستطيع قبائلهم أن تفعل، وإنما: أين الحق؟

وفي خطبة أخرى أكد المعنى نفسه فقال:"إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق".[71]

وهذه العبارة وحدها تختصر معنى الدولة العادلة؛ أن يشعر المظلوم أن ضعفه لن يضيّع حقه، ويعلم القوي أن قوته لن تحميه من العدل.

(70) ابن هشام، السيرة النبوية، خطبة أبي بكر بعد البيعة؛ والطبري، تاريخه، حوادث سنة 11 هـ.

(71) ابن هشام، السيرة النبوية، خطبة أبي بكر بعد البيعة؛ والطبري، تاريخه، حوادث سنة 11 هـ.

لم تكن هيبة أبي بكـر في أن يخشـاه الضـعفاء، بـل في أن يعلـم الأقويـاء أن نفوذهم يقف عـند حـدود الحق.

وهنا يصبح الحكم حمايةً للناس، لا امتيازًا لفئة منهم.

هكذا سادوا: حين كان الحق هو الذي يمنح القوة، لا المال ولا المنصب ولا كثرة الأنصار.

رجلُ دولةٍ لا رجلُ أزمةٍ فقط

كانت وفاة النبي ﷺ أخطر لحظة عرفتها الدولة الإسلامية الناشئة؛ فقـد غـاب القائد، واضطربت النفوس، وظهرت الردة، وامتنعت طوائف عن الزكاة، وتهـدد التفكك كيانًا لم يمض على اكتماله إلا وقت قصير.[72]

وفي مثل هذه اللحظات قد ينجح الرجل في إطفاء الأزمـة، لكنـه يفشـل في بناء ما بعدها.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم يكن رجل رد فعل فقط؛ بل تعامـل مـع اللحظة بعقل الدولة.

(72) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ؛ والبخاري (1399) لأصل قتال مانعي الزكاة.

ثبّت الناس أولًا، ثم ثبّت المرجعية، ثم حمى وحدة الجماعة، ثم واجه التمرد، ثم أعاد تنظيم القوة، ثم دفع الجيوش خارج الجزيرة بعد أن استقرت الجبهة الداخلية.[73]

وهنا تظهر عبقرية أعمق من مجرد الشجاعة: أن تعرف ترتيب الأولويات.

فلو انشغل بالفتوحات قبل إطفاء الردة، تفككت الجزيرة .ولو اكتفى بالدفاع داخل المدينة، تمددت الفتنة.

ولو رضي بحلول مؤقتة تحفظ الهدوء، لربما اشترى سكونًا قصيرًا بثمن انهيار طويل.

لكنه أدرك أن الدولة لا تحفظها العاطفة وحدها، ولا النيات الطيبة، بل وضوح المرجعية، ووحدة القرار، وسرعة الحسم، وحسن توزيع القوة.

وفي أقل من عامين، انتقلت الأمة من صدمة وفاة نبيها ﷺ وخطر التمزق الداخلي إلى كيان متماسك يتحرك بثقة على أكثر من جبهة.

(73) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ؛ والبخاري (1399) لأصل قتال مانعي الزكاة.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يكن رجلًا أنقذ موقفًا عابرًا، بل رجل دولة عرف كيف يحوّل أخطر فراغ في القيادة إلى مرحلة تثبيت، ثم إلى مرحلة قوة واتساع.

بساطةُ الحكم لا تعني ضعفَ الدولة

لم تكن دولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه دولةً كثيرة التعقيد في أدواتها، ولا مثقلةً بالمظاهر والبروتوكولات، لكنها كانت واضحة الأصول، قوية المرجعية، دقيقة المسؤولية.

فبساطة الوسائل لم تعنِ بساطة الفهم، وقلة الأجهزة لم تعنِ غياب النظام.

كان أبو بكر يعرف أن الحكم لا يقوم بكثرة المظاهر، بل بعدلٍ يحفظ الحقوق، وشورى تُسمع فيها الآراء، ومسؤوليةٍ يتحملها الحاكم قبل غيره، وقرارٍ لا يتردد حين يتضح الحق.

ولهذا لم يحتج إلى أن يصنع حول الخلافة حواجز تعزله عن الناس، ولا إلى أن يضخم صورة السلطة حتى تُهاب؛ بل كانت هيبتها نابعة من وضوحها وثباتها وعدلها.

وفي عهده القصير، أُديرت أزمة الردة، ونُظمت الجيوش، ووُزعت المهام، وتابعت المدينة جبهات متعددة، واستمر كيان الدولة في العمل رغم ضخامة التحولات.

وهذا يكشف أن قوة الدولة لا تُقاس دائمًا بكثرة مؤسساتها الظاهرة، بل بسلامة أصولها :من يقرر؟ وعلى أي أساس؟ وكيف تُحفظ الحقوق؟ وكيف تُنفذ المسؤوليات؟[74]

فإذا استقامت هذه الأصول، أمكن لأبسط جهاز أن يعمل بكفاءة عالية. وإذا فسدت، لم تنفع كثرة الهياكل ولا ضخامة المظاهر.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: حكم ببساطةٍ في الشكل، لكن بعمقٍ في المبدأ؛ فكانت دولته قليلة الزينة، كثيرة المعنى، واضحة القرار، شديدة التماسك.

(74) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنتي 11–13 هـ.

الوفاء للنبي ﷺ شرف القائد

بعد وفاة النبي ﷺ اضطربت الجزيرة، وأصبحت المدينة مهددة، ومع ذلك أصر أبو بكر رضي الله عنه على إنفاذ جيش أسامة الذي جهزه رسول الله.ﷺ (75)

راجعه بعض الصحابة خشيةً على المدينة، لكنه لم يتراجع؛ فقد رأى أن الخطر مهما عظم لا يبرر نقض أمرٍ عقده رسول الله.ﷺ (76)

كان يستطيع أن يجد للموقف أعذارًا كثيرة، لكنه اختار الوفاء.

فكان من أول أعمال خلافته أن أمضى ما أراده النبيﷺ ؛ لأن الوفاء للنبي ﷺ من خصائص القائد الفذّ.

الحزم من أدوات القيادة الأنجع

كان أبو بكر رضي الله عنه من أرحم الناس وألينهم، لكن رحمته لم تمنعه من الحزم حين يتعلّق الأمر بأمانةٍ تركها رسول الله.ﷺ

(75) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، أخبار إنفاذ جيش أسامة سنة 11 هـ.

(76) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، أخبار إنفاذ جيش أسامة سنة 11 هـ.

بعد وفاة النبي ﷺ ، ومع اضطراب الجزيرة وخشية الصحابة على المدينة، راجعه بعضهم في تأخير بعث أسامة، وكان عمر رضي الله عنه ممن ناقشه في ذلك، لكنه لم يتزعزع، وقال كلمته الحاسمة:[77]

"والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول اللهﷺ ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته".[78]

لم يكن حزمُه قسوةً، بل وضوحًا في موضعٍ لا يحتمل التردد؛ فقد كانت الأمانة عنده أكبر من ضغط اللحظة ورأي الرجال.

هِمَّةٌ لا تعرف التراجع

لم تكن همة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الجهاد طارئةً فرضتها عليه الخلافة، بل كانت خلقًا لازمَه منذ كان مع رسول الله ﷺ ؛ يتقدم في مواطن الخوف، ويذب عنه بنفسه، ويجاهد بيده ولسانه وماله .وتصفه الروايات بأنه

(77) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ؛ تختلف ألفاظ الخبر في المصادر.

(78) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ؛ تختلف ألفاظ الخبر في المصادر.

كان يوم بدر واقفًا عند رسول الله ﷺ شاهراً سيفه، لا يدنو منه أحد إلا كان أبو بكر دونه.[79]

ثم لما صار خليفة، لم ير أن القيادة تعني أن يبقى بعيدًا عن الميدان .وحين خرج إلى ذي القَصّة لمواجهة المرتدين، ألح عليه الصحابة أن يبقى في المدينة ويبعث غيره، فأبى في أول الأمر وقال:"لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي".[80]

وكان ضرار بن الأزور يصف ما رآه من قوة قلبه فيقول: "ما رأيت أحدًا أملأ بحرب شعواء من أبي بكر"، حتى إن الأخبار الشديدة كانت تبلغه فكأنها أخبار نصر، لا أخبار خوف؛ لما في قلبه من يقين بوعد الله.[81]

ولم يكتف بالحماسة، بل حوّل العزم إلى خطة دقيقة؛ فقسّم الجيوش إلى أحد عشر لواءً، وجعل لكل لواء وجهته وقائده، ووزع القوة على جبهات الجزيرة قبل أن تتجمع قوى الردة في جبهة واحدة.

(79) خبر حماية النبي ﷺ في بدر في كتب الفضائل.
(80) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، خبر ذي القَصّة.
(81) خبر ضرار بن الأزور: الطبري، تاريخه، حوادث الردة سنة 11 هـ.

كانت همته إذن أوسع من الشجاعة الشخصية؛ همة قائد يرى الخطر، ويقدّر حجمه، ثم ينهض إليه قبل أن يستفحل.[82]

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يكن أول الناس كلامًا عن نصرة الدين فحسب، بل كان من أولهم حركةً، وأسرعهم قرارًا، وأثبتهم قلبًا حين كانت الأمة في حاجة إلى رجل لا يتراجع.

"ما ترك قومٌ الجهاد إلا ضربهم الله بالذل"

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يدرك أن عزَّ الأمة لا يُصان بالأماني، وأن الحق إذا لم تحرسه قوةٌ تحمله وتدفع عنه، طمع فيه أعداؤه وتجرأ عليه المتربصون .لذلك جاءت كلمته حاسمةً منذ أول أيام خلافته:

"لا يدع قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل".[83]

ولم تكن هذه موعظةً يقولها للناس ثم يقعد عنها؛ بل عاشها عبادةً ومسؤولية .فما كادت وفاة رسول الله ﷺ تهز الجزيرة، وتظهر الردة، وتمتنع طوائف عن الزكاة، حتى قام الصديق وحده في موضعٍ اضطرب فيه كثيرون،

(82) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، أخبار عقد الألوية في حروب الردة.
(83) ابن هشام، السيرة النبوية، خطبة أبي بكر بعد البيعة؛ وهو أثر عن أبي بكر لا حديث مرفوع.

وقال في ثباته المشهور: "لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه"، ثم أعلن مبدأه الذي لا مساومة فيه:"إنه قد انقطع الوحي وتم الدين، أينقص وأنا حي؟".

كان يرى أن التراجع في تلك الساعة لن يكون تنازلًا عن جزئية، بل فتحًا لباب تتداعى منه هيبة الدين ووحدة الدولة .ولهذا لم ينتظر حتى تتجمع الفتن وتكبر، بل بادرها؛ فقسّم الجيوش إلى أحد عشر لواءً، وحدد لكل جيش وجهته ومهمته، وضرب بؤر الردة قبل أن تتوحد وتستفحل.[84]

ولم يكن يدير ذلك من وراء ستر؛ فقد خرج بنفسه يريد قتال المرتدين، حتى ألح عليه الصحابة أن يرجع إلى المدينة لما في بقائه من حفظ نظام الأمة، وكان يقول: "لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي"، ووصف ضرار بن الأزور ما رآه من عزمه فقال: "ما رأيت أحدًا أملأ بحربٍ شعواء من أبي بكر".[85]

ثم لم تقف همته عند حفظ الجزيرة من التمزق؛ فما إن استقرت جبهة الردة حتى تحركت الجيوش في عهده إلى جبهتي الفرس والروم، في خلافة لم

(84) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، أخبار عقد الألوية في حروب الردة.
(85) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، خبر ذي القَصّة.

تمتد إلا نحو عامين .وتذكر النصوص التي جمعتها أنه أرسل أحد عشر جيشًا في حروب الردة، ثم أطلق حملات على الجبهتين الفارسية والرومية.

في مدة قصيرة كان يمكن أن تضيع فيها دولة ناشئة بوفاة نبيها ﷺ ، تحولت الفتنة إلى ثبات، والتفرق إلى جيوش منظمة، والخطر المحدق بالمدينة إلى قوة تتحرك خارج حدود الجزيرة.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: فهم أن الجهاد ليس اندفاعًا عابرًا، بل عبادةٌ تحفظ الدين، وتحمي جماعة المسلمين، وترد العدوان، وتمنع الذل قبل أن يستقر.

فقالها كلمةً، ثم كتبها في سنتين من خلافته فعلًا: "لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل".[86]

(86) ابن هشام، السيرة النبوية، خطبة أبي بكر بعد البيعة؛ وهو أثر عن أبي بكر لا حديث مرفوع.

فنُّ المبادرة قبل استفحال الفتنة

من أخطر أخطاء القيادة أن ترى الخطر وهو صغير، ثم تؤجل مواجهته حتى يكبر ويتصل بعضه ببعض، فإذا تحركت كان الثمن أضعاف ما كان يمكن دفعه في البداية.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه فهم هذا المعنى في واحدة من أخطر مراحل تاريخ الدولة الإسلامية.

بعد وفاة النبي ﷺ ظهرت الردة في قبائل متعددة، وبدأت بؤر التمرد تنتشر في أنحاء الجزيرة .وكان من الممكن أن ينتظر الصديق حتى تتضح الصورة أكثر، أو حتى تجتمع القبائل المتمردة في قوة واحدة؛ لكنه أدرك أن التأخر هنا ليس حياداً، بل منحٌ للفتنة وقتًا تتسع فيه.[87]

لذلك بادر قبل أن تتوحد مراكز الخطر، وقسّم الجيوش إلى ألوية متعددة، وحدد لكل جيش وجهته، وضرب كل بؤرة في موضعها قبل أن تجد فرصة للاتصال بغيرها أو لبناء جبهة موحدة.

(87) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، أخبار عقد الألوية في حروب الردة.

وهنا تظهر عبقرية التوقيت :لم تكن القوة في كثرة الجيوش فقط، بل في متى تتحرك، وأين تضرب، وما الذي تمنعه قبل أن يحدث.

فالقائد البصير لا ينتظر النار حتى تملأ المكان ثم يسأل كيف يطفئها، بل يرى أول شرارة ويعرف ما يمكن أن تصير إليه إذا تُركت.

وقد تلخصت الحكمة في هذه الخطة بأنها قامت على تعجيل الضربات قبل أن يتجمع أهل الردة بعضهم إلى بعض، فلا يمنحهم الزمن فرصة لتقوية صفوفهم أو توسيع فتنتهم.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأنه لم يكن ينتظر الخطر حتى يفرض شروطه، بل كان يسبقه؛ يقرأ بدايته، ويقدّر مآله، ويتحرك قبل أن تتحول الفتنة من بؤر متفرقة إلى نار يصعب احتواؤها.

المحور الخامس: القيادة ومعرفة الرجال

الرجل يعرف الرجل

من خصائص قيادة أبي بكر رضي الله عنه معرفته بالرجال، وإدراكه لمواطن القوة في كل واحد منهم.

وحين اضطربت الجزيرة بعد وفاة النبيﷺ ، عرف أن الميدان يحتاج إلى خالد بن الوليد، فعقد له لواء قتال أهل الردة، وذكّر بقول النبي ﷺ فيه» :سيفٌ من سيوف الله، سلَّه الله على الكفار والمنافقين.«[88]

وحين طُلب منه عزل خالد، أبى أن يهدر موهبته العسكرية، وقال :"والله لا أشيم سيفًا سلَّه الله على عدوه".[89]

كان الصديق يعرف الرجل المناسب للمهمة، ويضع صاحب الكفاءة في المكان الذي تحتاجه الأمة وفي الوقت المناسب لها تمامًا.

(88) البخاري (4262)، في تسمية خالد «سيفًا من سيوف الله»؛ وباقي اللفظ يروى في كتب المناقب.

(89) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة خالد بن الوليد (240/16)، خبر «لا أشيم سيفًا».

فالرجل يعرف الرجل، والقائد الحق لا يصنع كل شيء بنفسه؛ بل يعرف مَن يصنعه.

القائد يكتشف الرجال قبل أن تصنعهم المناصب

جاء وفد ثقيف إلى النبي ﷺ ، وكان عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه من أحدثهم سنًّا، لكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لمح فيه ما قد يخفى على غيره، فقال للنبي ﷺ :"يا رسول الله، إني قد رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلُّم القرآن".[90]

فولّاه النبي ﷺ على ثقيف، وظل أميرًا على الطائف في خلافة أبي بكر، وكان له بعد وفاة النبي ﷺ أثرٌ حاسم في تثبيت قومه على الإسلام حين همّ بعضهم بالردة.[91]

لم ينظر أبو بكر إلى صغر سنه، بل إلى ما يحمله من علمٍ وهمة واستعداد.

هكذا يكون القائد: يرى في الرجل ما يمكن أن يكونه، قبل أن يراه الناس فيما صار إليه.

---

(90) ابن هشام، السيرة النبوية (197/4)، وفد ثقيف واستخلاف عثمان بن أبي العاص.

(91) ابن هشام، السيرة النبوية (197/4)، وفد ثقيف واستخلاف عثمان بن أبي العاص.

يعرف أقدار الرجال

من دلائل قوة القائد أن يعرف قيمة الرجال من حوله؛ فلا يحسد الموهوب، ولا يخشى القوي، ولا يضيق بمن يملك رأيًا مستقلًا، بل يضع كل رجل في الموضع الذي يحسن فيه.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أقدر الناس على ذلك.

فقد عاش بين جيلٍ امتلأ بالشخصيات العظيمة: عمر بعزمه، وعثمان بحيائه ومكانته، وعلي بعلمه وقرابته، وخالد بعبقريته العسكرية، وأبو عبيدة بأمانته، وغيرهم من كبار الصحابة؛ ولم يحتج الصديق إلى أن يصغر أحدًا منهم حتى يكبر هو.

بل كان يعرف فضلهم، ويستشيرهم، ويستفيد من اختلاف طبائعهم، ويوكل الأعمال إلى أهلها.

وهذه منزلة لا يبلغها من جعل القيادة إثباتًا مستمرًا لذاته؛ فالقائد الضعيف يخاف ممن يلمع حوله، أما الواثق فيرى قوة أصحابه زيادةً في قوته، ونجاحهم نجاحًا للمهمة التي يحملها.

ولذلك استطاع أبو بكر رضي الله عنه، في مدة خلافته القصيرة، أن يحرك رجالًا كبارًا في ميادين متعددة، وأن يجمع اختلافهم تحت غاية واحدة دون أن يلغي شخصياتهم أو مواهبهم.

فلم يكن المطلوب أن يصبح الجميع أبا بكر، بل أن يعطي كل واحد منهم خير ما عنده لخدمة الإسلام.

وهذا من أسرار القيادة الراشدة: أن تعرف الرجال، وتعرف قدراتهم، ثم تضعهم حيث تنفع الأمة بهم أكثر.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يحتكر الفضل، ولم يخف من قوة الرجال حوله؛ بل أحسن معرفة أقدارهم، فكبر بهم وكبروا به، وصارت مواهب متعددة قوةً واحدة تخدم غايةً واحدة.

اختلافُ يصنع القوة

لم يكن أبو بكر وعمر رضي الله عنهما نسخةً واحدة في الطبع، ولا كان اتفاقهما يعني غياب الاختلاف بينهما؛ بل كان لكل واحد منهما مزاجه وطريقته ونظرته إلى بعض المواقف.

كان أبو بكر أميل إلى اللين، وعمر أميل إلى الشدة، لكن هذا الاختلاف لم يتحول إلى تنازع على المكانة أو صراعٍ على الرأي، لأن كليهما كان يريد الحق قبل أن يريد أن ينتصر لنفسه.

وهنا تكمن عظمة الصحبة الراشدة: أن يختلف الرجلان، ثم يبقى الأصل الذي يجمعهما أكبر من المسألة التي فرّقتهما في الرأي.

فلم يكن أبو بكر يرى قوة عمر تهديدًا له، ولا كان عمر يرى لين أبي بكر ضعفًا ينتقص من قدره؛ بل كان كل واحد منهما يعرف فضل صاحبه، ويستفيد من طبيعته، ويقف معه حيث يظهر له وجه الحق.

ولهذا لم يفسد الاختلاف المودة، ولم تتحول قوة الشخصية إلى منافسة . كانت النفوس أكبر من أن تضيق بتعدد الاجتهاد، ما دام المقصد واحدًا.

وهذه من أعظم دروس القيادة: أن الفريق القوي ليس الذي يتشابه أفراده، بل الذي تختلف قدراتهم وتتكامل، ويعرف كل واحد منهم قدر نفسه وقدر صاحبه.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يحتج إلى إضعاف القوي بجانبه حتى يبقى قويًا، بل عرف قدر عمر، وقربه، وانتفع برأيه؛ لأن القائد الواثق لا يخاف

من أصحاب الكفاءة، بل يجعل اختلافهم قوةً للأمة .ولا عجب أن اختاره لخلافته بكل ثقة وعزم ويقين![92]

العلم بالناس قبل مخاطبتهم

لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعرف الحق فقط، بل كان يعرف الناس أيضًا؛ يعرف أن النفوس تختلف، وأن القبائل لها طبائع، وأن مخاطبة الناس لا تكون بعبارة واحدة ولا بأسلوب واحد.

ولهذا عُرف بعلمه بأنساب العرب، ومناقب القبائل ومثالبها، ومعرفته برجالها ومواقعهم .فلم يكن هذا العلم ترفًا اجتماعيًا، بل صار أداةً في الدعوة، وبابًا من أبواب حسن السياسة وفهم المجتمع.[93]

وحين كان رسول الله ﷺ يعرض الإسلام على القبائل، كان أبو بكر يعرف من أمامه، ويسأل عن نسبهم، ويعرف مكانتهم وصلاتهم، فيمهد للكلام ويضع الدعوة في موضعها المناسب.[94]

(92) الطبري، التاريخ، عهد أبي بكر لعمر؛ وابن سعد، الطبقات، ترجمة أبي بكر.
(93) ابن هشام، السيرة النبوية، خبر عرض الإسلام على القبائل؛ وانظر ابن كثير، البداية والنهاية.
(94) ابن هشام، السيرة النبوية، خبر عرض الإسلام على القبائل؛ وانظر ابن كثير، البداية والنهاية.

وهذه خصلة يغفل عنها كثيرون :أن حسن الدعوة لا يقوم على صدق الفكرة وحده، بل يحتاج أيضًا إلى فقهٍ بالناس؛ من تخاطب؟ وما الذي يفتح قلبه؟ وما الذي يغلقه؟ وما المدخل الذي يناسبه؟

فمن لا يعرف الناس قد يحمل الحق، لكنه يقدمه بطريقة تنفرهم منه، ومن يعرف الناس دون حق يضل بهم . أما أبو بكر رضي الله عنه فجمع بين الأمرين: معرفة الحق، ومعرفة من يدعوه إليه.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يكن صاحب موقف فقط، بل صاحب بصيرة بالناس، يعرف طبائعهم، ويضع لكل مقام مقاله، ويجعل من العلم بالمجتمع وسيلةً لخدمة الدين لا للاستعلاء على الناس.

يصنع القادة ولا يقيّدهم

لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه قائدًا يحتكر القرار ثم يحوّل أمراءه إلى منفذين بلا شخصية؛ بل كان يعرف الرجال، يختار لكل ميدان قائده، يحدد له الغاية، ثم يحمّله المسؤولية ويمنحه من الثقة ما يجعله أهلًا لها.

ظهر ذلك منذ أول أيام خلافته مع أسامة بن زيد رضي الله عنهما .فقد أصر أبو بكر على إنفاذ الجيش الذي عقد لواءه رسول الله ﷺ ، ولم يغيّر قائده لصغر

سنه، مع ضخامة الظرف الذي كانت تمر به المدينة .بل قال له :"اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ ولا تقصرن من شيء من أمر رسول الله" . ثم استأذن أسامة نفسه أن يبقي عمر بن الخطاب في المدينة ليستعين به، مع أنه الخليفة، وأسامة قائد الجيش؛ وفي ذلك احترامٌ واضح لصلاحيات القائد الذي ولاه رسول الله.ﷺ (95)

ومع الثقة جاءت الوصية؛ فقد وقف أبو بكر يوصي جيش أسامة بألا يخونوا أو يغدروا أو يمثلوا، وألا يقتلوا طفلًا أو شيخًا أو امرأة، وألا يقطعوا شجرًا مثمرًا أو يفسدوا ما لا حاجة إلى إفساده .فالحرب عنده لم تكن إطلاقًا للفوضى، بل عبادة لها حدود وأخلاق.

ثم جاء خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقرأ أبو بكر فيه ما لا يقرأه كل قائد في رجاله .وضعه في مقدمة الجيوش في حروب الردة، ثم لما تعقد الموقف في الشام ورأى أن الجيوش تحتاج إلى قائد يجمعها ويكسر حالة الجمود، قال:

(95) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، قصة إنفاذ جيش أسامة سنة 11 هـ.

»والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .«ثم كتب إليه يأمره بالمسير إلى اليرموك.[96]

ومع إعجابه بخالد، لم يداهنه؛ بل كتب إليه يحذره من العجب بعد توالي الانتصارات :"ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل؛ فإن الله له المن وهو ولي الجزاء".[97]

وهنا يظهر ميزان الصديق في التعامل مع القادة :يعرف الموهبة، ويطلقها، لكنه لا يسمح لها أن تتحول إلى غرور.

ومع عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص والمهاجر بن أبي أمية وغيرهم، لم يرسل الجيوش اعتباطًا؛ بل جعل لكل قائد ميدانًا يناسب المهمة، وربط تحركات بعضهم ببعض :يفرغ هذا من جبهة فيمد الآخر، ويتحرك ذاك بعد إتمام مهمته إلى جبهة جديدة .وكان ذلك ضمن

(96) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث الردة وفتوح العراق والشام.
(97) من كتب السير وكتب أبي بكر إلى خالد.

خطة واسعة قسمت قوات الردة إلى ألوية متعددة موزعة على أنحاء الجزيرة.[98]

وفي الشام، حين واجه القادة كثرة الروم، لم يطالبهم أبو بكر بالبطولة الفردية المتفرقة، بل أمرهم بالاجتماع، وقال لهم بمعنى جامع إن الهزيمة لا تأتي من قلة العدد وحدها، وإنما من الذنوب والتفرق، وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين.[99]

فكان يتعامل مع قائده بثلاثة أشياء معًا :ثقة، ومحاسبة، وتوجيه .لا يسلبه قراره، ولا يتركه بلا رقابة، ولا يحطمه إذا أخطأ، ولا يغريه بالمدح إذا نجح.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: عرف أن القائد الكبير لا يصنع جيشًا فقط، بل يصنع قادة؛ يعرف لكل رجل قدره، ويضعه حيث يبدع، ويترك له مساحة الحركة، ثم يرده دائمًا إلى أصل واحد :أن النصر من الله، وأن القوة أمانة، وأن القيادة خدمة للدين لا مجدًا للنفس.

(98) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث الردة وفتوح العراق والشام.

(99) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث الردة وفتوح العراق والشام.

القائد يصبر حتى تأتي لحظة الحسم

في حرب الردة، عقد أبو بكر الصديق رضي الله عنه لواء البحرين للعلاء بن الحضرمي، واختاره لمواجهة واحدة من أخطر جبهات الردة.[100]

فسار العلاء برجاله عبر صحراء الدهناء، وتحملوا مشقات شديدة، ثم اجتمع بمن ثبت على الإسلام من أهل البحرين، وخاض مع المرتدين حصارًا وقتالًا امتدا زمنًا.[101]

ولما علم أن الاضطراب دبّ في معسكر عدوه، وأن كثيرًا منهم قد سكروا، أدرك أن لحظة الحسم قد جاءت، فبادر بالهجوم قبل أن تضيع الفرصة، فهزمهم وواصل القتال حتى دارين.[102]

من عقد اللواء إلى لحظة الحسم، كانت القيادة تقوم على اختيار الرجل المناسب، ثم الصبر، ثم اغتنام الفرصة.

(100) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، أخبار العلاء بن الحضرمي والبحرين.
(101) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، أخبار العلاء بن الحضرمي والبحرين.
(102) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، أخبار العلاء بن الحضرمي والبحرين.

هكذا يكون القائد: يصبر حين يكون الصبر قوة، ويحسم حين تصبح المبادرة فرصة لا تتكرر.

القائد بين رجاله، لا بعيدًا عنهم

حين جهّز أبو بكر الصديق رضي الله عنه الجيوش إلى الشام، لم يكتفِ بعقد الألوية وإصدار الأوامر، بل خرج بنفسه يطوف في معسكر المسلمين، يتفقدهم ويقوّي الضعيف منهم.[103]

ومرّ بخباء عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، فرأى عنده الخيل والسلاح والعُدّة، فعرض عليه المعونة.[104]

فقال عكرمة: معي ألفا دينار، فاصرف معونتك إلى غيري .فدعا له أبو بكر بخير.[105]

لم تكن القيادة عند الصديق أوامر تُرسل من بعيد؛ بل معرفةً بحال الرجال، وتفقدًا لحاجاتهم، ووضعًا للمال والعون حيث تكون الحاجة.

(103) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، أخبار تجهيز جيوش الشام.
(104) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، أخبار تجهيز جيوش الشام.
(105) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، أخبار تجهيز جيوش الشام.

كانوا قادةً للدولة، لكنهم ظلوا قريبين من رجالها.

القائد لا يطلب من رجاله خطرًا يفرُّ منه

بعد عودة جيش أسامة، خرج أبو بكر رضي الله عنه بنفسه مع المسلمين لمواجهة الخطر حول المدينة.

وحين خشي الصحابة عليه وطلبوا منه الرجوع، رُوي أنه قال: "لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي".[106]

لم تكن القيادة عنده أن يرسل الرجال إلى مواطن الخطر ثم ينتظر أخبارهم بعيدًا.

كان يرى أن من حق الجند على قائدهم أن يجدوه معهم حين تشتد الساعة.

تكريم القائد لا ينقص من هيبة الخليفة

حين أنفذ أبو بكر جيش أسامة رضي الله عنهما، خرج يشيّعه ماشيًا، وأسامة على فرسه.[107]

(106) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، خبر ذي القَصّة.

(107) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، خبر توديع أسامة.

فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل.[108]

فأبى أبو بكر أن ينزل أسامة، وأبى هو أن يركب.

لقد كان خليفة المسلمين، ومع ذلك لم يجد في المشي إلى جوار قائد شاب ما ينتقص من مقامه.

الكبير حقًا لا يحتاج أن يُصغّر من حوله حتى يبدو كبيرًا.

(108) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 11 هـ، خبر توديع أسامة.

المحور السادس :الأسرة والأمانة وأواخر المسيرة

عظيمٌ في الدولة، دافئٌ في بيته

قد ينجح الرجل في الشأن العام، ثم يكون غريبًا عن بيته؛ يعرف أحوال الناس، ولا يعرف كيف يصنع الألفة مع أقرب الناس إليه.

لكن سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه تلفت نظرنا إلى معنى مختلف :أنه كان "رجل بيت" و "رجل أسرة"، لا يؤدي حقوق أهله بوصفها واجبًا ثقيلًا فحسب، بل يجد في القرابة والمودة والصحبة نعمةً وأنسًا.

كان بارًّا بأبويه، رحيمًا بأبنائه، وفيًّا بأهله، قريبًا ممن يحب، حتى إن العاطفة في بيته لم تكن ضعفًا يُخجل منه، بل جزءًا من إنسانيته.

ومن لطيف ما روي في شأن ابنه عبد الله أنه أمره أولًا بطلاق زوجته عاتكة حين شغلته عن بعض شأنه، فلما رأى شدة حزنه وندمه عليها رقّ له، وأمره أن يراجعها.[109]

(109) ابن عبد البر، الاستيعاب، ترجمة عاتكة بنت زيد؛ وابن الأثير، أسد الغابة، ترجمتها.

فهنا لا ترى أبًا متصلبًا يريد أن ينتصر لأمره لمجرد أنه صدر منه؛ بل ترى أبًا يعيد النظر حين يرى ما في قلب ابنه.

وكان مع ذلك مقتصدًا في بيته، يكره السرف، حتى نُقل عنه قوله» :إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم«؛ فلم تكن محبة الأهل عنده إغراقًا في الترف، بل مودةً معها مسؤولية وحسن تدبير.[110]

وهذه صورة مهمة من عظمته: أن الرجل الذي حمل همَّ الأمة، وقاد الجيوش، وثبّت الدولة، لم تجعل منه المسؤوليات قلبًا جافًّا في بيته.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: كان كبيرًا خارج بيته دون أن يتصاغر أهله في قلبه، فجمع بين مسؤولية الأمة ودفء الأسرة؛ لأن العظمة الحقيقية لا تظهر في المجالس وحدها، بل تُختبر أيضًا عند أقرب الناس إلينا.

(110) نُقلت العبارة في كتب التراجم والحكم.

عظيمٌ في الأمة، وفيٌّ في بيته

حين نقرأ سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يطغى على الذهن الخليفة، وصاحب الغار، وقائد حروب الردة؛ لكن وراء هذه الصورة العامة رجلُ بيتٍ عرف للزوجة قدرها، وجعل المودة والثقة حاضرتين حتى في آخر لحظات حياته.

تزوج أبو بكر رضي الله عنه في الإسلام أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وكانت من السابقات إلى الإسلام، ومن مهاجرات الحبشة، وكانت قبل ذلك زوجة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما استشهد جعفر في مؤتة تزوجها أبو بكر، وولدت له محمد بن أبي بكر.

وكانت أسماء امرأةً صاحبة تجربة وإيمان وهجرة وابتلاء؛ فلم يدخل بها أبو بكر بيتًا من فراغ، بل دخل على امرأة عرفت الغربة وفقد الزوج وتحمل المسؤولية. وفي حياتهما ظهر قدر من الثقة الخاصة بين الزوجين، حتى بلغ الأمر أن أوصى أبو بكر رضي الله عنه عند موته أن تغسله أسماء بنت عميس بنفسها.[111]

(111) مالك، الموطأ، كتاب الجنائز، أثر غسل أسماء بنت عميس لأبي بكر (مرسل).

والمشهد في ذاته بالغ الدلالة :الرجل الذي حملته الأمة خليفةً، وأطاعته الجيوش، وأدار أخطر أزماتها، اختار عند موته أن تكون زوجته هي الأقرب إليه في آخر خدمة تُؤدى له.[112]

وتذكر بعض الروايات أنها كانت صائمة يوم غسله، فسألت من حضر من المهاجرين عن الغسل في شدة البرد، ثم أفطرت في آخر النهار وفاءً بما عزم عليها أبو بكر من ألا تضعف.[113]

ولم تكن أسماء وحدها في حياته؛ فقد تزوج كذلك أم رومان رضي الله عنها، أم عائشة وعبد الرحمن، وحبيبة بنت خارجة الأنصارية، وكانت له منها أم كلثوم التي وُلدت بعد وفاته .وكان أبو بكر يقيم عند حبيبة في السنح، ثم يأتي إلى المدينة لأمر المسلمين.

ومن اللافت أن بيته لم يكن هامشًا في حياته، بل كان جزءًا من تكوينه كله: زوجات صالحات، وأبناء وبنات كان لكل واحد منهم حضور في تاريخ الإسلام، وبيتٌ بقي متصلًا بالدعوة والهجرة والصحبة.

(112) مالك، الموطأ، كتاب الجنائز، أثر غسل أسماء بنت عميس لأبي بكر (مرسل).
(113) مالك، الموطأ، كتاب الجنائز، أثر غسل أسماء بنت عميس لأبي بكر (مرسل).

أما أسماء بنت عميس خصوصًا، فكانت علاقتها بـه مميـزة حتـى بعـد موتـه؛ فقد بقيت تحفظ له قدره، وروي عنها بعد ذلك أنها قالت في المفاضلة بين جعفر وأبي بكر:"ما رأيت شابًا خيرًا من جعفر، ولا كهلًا خيرًا من أبي بكر".[114]

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم تكن عظمته خارج البيت على حساب من فيه؛ بل كان البيت موضع ثقة ومودة ومسؤولية، حتى اختار أن تكون زوجتـه أسماء آخر من يتولى خدمته في الدنيا.

حين خاف على القرآن من أن يضيع

لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحفظ حاضر الأمة فقط، بل كان يفكـر فيما سيبقى لها بعد أن يمضي رجالها.

فبعد معركة اليمامة، قُتل عدد كبير من قرّاء القرآن، فجـاء عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه إلى أبي بكر يخشى أن يذهب من القرآن شيء بموت الحفـاظ، وأشار عليه بجمعه في مصحف واحد.[115]

تردد أبو بكر أول الأمر وقال:"كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟".[116]

(114) ابن سعد، الطبقات الكبرى (41/4)؛ وابن أبي شيبة، المصنف (32871).
(115) البخاري (4986)، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

وهنا تظهر دقة الصديق :لم يكـن يتعجـل أمـرًا يتعلـق بالـدين، ولا يفـتح بابًـا لمجرد أن الفكرة تبدو نافعة؛ كان أول سؤاله :هل لهذا أصل؟ وهـل في فعلـه حفظ للدين أم تجاوز لما تركه النبيﷺ ؟

وظل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لما رأى فيه من مصلحة ظاهرة، فأمر زيد بن ثابت رضي الله عنـه بتتبـع القـرآن وجمعـه مـن الرقـاع والعسـب وصدور الرجال.[117]

وكانت المهمة شاقة حتى قال زيد إن نقل جبل من الجبال لم يكن أثقل عليه مما كُلّف به من جمع القرآن.[118]

وهنا تظهر عظمة القرار: لم يكن أبو بكر يجمع أوراقًـا، بـل كـان يحفـظ للأمـة كتاب ربها من أن يتفرق بموت حملته.

ومن أجمل ما في الموقف أن الصديق لم يتمسك بتردده الأول كبرياءً أو عنادًا، بل لما ظهر له وجه الحق رجع إليه، واتخـذ القـرار الـذي بقـي أثـره في الأمـة كلها.

---

(116) البخاري (4986)، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.
(117) البخاري (4986)، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.
(118) البخاري (4986)، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: خاف على القرآن قبل أن يقع الخطر، وتوقف حين احتاج الأمر تثبتًا، ثم بادر حين ظهر له الصواب؛ فكان من أعظم أعمال خلافته أن حُفظ كتاب الله مجموعًا للأجيال من بعده.

رجل الدولة يفكر في اليوم الذي يأتي بعده

حين اشتد مرض أبي بكر رضي الله عنه، لم يترك أمر المسلمين للفوضى بعد موته.

فكر فيمن يحمل المسؤولية، ثم لم يعتمد على رأيه وحده؛ بل سأل كبار الصحابة عن عمر رضي الله عنه، واستشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان وغيرهما.[119]

وكان ينظر إلى الأمر باعتباره أمانة لله وللدين وللناس.

القائد لا يُقاس فقط بما فعله في أيام حكمه، بل بما يتركه من تدبير بعد رحيله.

(119) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 13 هـ، عهد أبي بكر لعمر.

لا يترك الأمة للفراغ

حتى وهو على فراش الموت، لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه يفكر في نفسه وحدها، بل كان يحمل همَّ ما سيحدث للأمة بعده.

فقد جرّب بنفسه كيف يمكن لغياب القائد أن يفتح أبواب الاضطراب؛ عاش لحظة وفاة النبي ﷺ ، ورأى كيف اضطربت النفوس، ثم كيف ظهرت الردة وتفرقت المواقف .لذلك لم يرد أن يترك المسلمين يدخلون مرة أخرى في فراغٍ لا يعرفون فيه إلى من يرجعون.

فبدأ يستشير أهل الرأي من الصحابة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يسأل عن دينه وقوته وقدرته على حمل المسؤولية، ثم لما اطمأن إلى رأيه عَهِد إليه بالخلافة من بعده.[120]

لم يكن ذلك توريثًا للسلطة، ولا تعلقًا بالمنصب؛ فأبو بكر كان يغادر الدنيا، وإنما كان ينظر إلى ما بعده :من يحفظ الجماعة؟ ومن يستطيع أن يحمل هذا العبء إذا غاب هو؟

(120) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث سنة 13 هـ، عهد أبي بكر لعمر.

وهنا يظهر فقه القيادة في آخر درجاته :أن لا يجعل القائد موته نهايةً للمشروع، ولا يترك المؤسسة معلقةً بشخصه، بل يفكر في الاستمرار قبل أن يرحل.

كان يستطيع أن يقول: الأمر بعدي للناس، ثم ينصرف إلى نفسه، لكنه رأى أن النصيحة للأمة لا تنتهي بمرضه، وأن مسؤوليته باقية ما بقي فيه نفس يستطيع به أن يدفع عنها اختلافًا أو اضطرابًا.

ولذلك اختار بعد مشاورة، ثم أوصى، ثم مضى إلى ربه وقد ترك للأمة طريقًا واضحًا بدل أن يتركها أمام فراغ جديد.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لم يتمسك بالحكم وهو حي، ولم يهمله وهو ميت؛ حمل أمانة الاستمرار حتى آخر لحظة، وفكر في استقرار الأمة بعده كما فكر في حفظها في حياته.

الأمانة تمتد حتى إلى آخر لحظة

لما حضر أبا بكر رضي الله عنه الموت، أمر أن تُرَدَّ الأشياء التي كان ينتفع بها بسبب توليه أمر المسلمين إلى الخليفة من بعده.[121]

فلما وصلت إلى عمر رضي الله عنه قال: "رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبتَ مَن جاء بعدك".[122]

لم يقل: أنا خليفة المسلمين وهذا حقي، بل ظل يراجع ما أخذه بسبب المنصب حتى وهو يودع الدنيا.

هكذا سادوا: خرجوا من السلطة وهم يخشون أن يبقى في أيديهم شيءٌ ليس لهم.

المالُ أمانةٌ لا غنيمة

لم ينظر أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى بيت مال المسلمين باعتباره بابًا اتسع له بعد الخلافة، بل أمانةً يخشى أن يدخل منها على نفسه شيء ليس له.

(121) الطبراني، المعجم الكبير (60/1، رقم 38)؛ وفي إسناده انقطاع. وانظر البيهقي، السنن الكبرى، باب رزق الإمام.
(122) الطبراني، المعجم الكبير (60/1، رقم 38)؛ وفي إسناده انقطاع. وانظر البيهقي، السنن الكبرى، باب رزق الإمام.

وكان قبل الخلافة يتجر ويكسب لنفسه، فلما تولى أمر المسلمين حاول أن يواصل تجارته، ثم رأى أن شؤون الناس لا تستقيم مع انشغاله بالسوق، فقال ما معناه :لا تصلح أمور الناس مع التجارة، ولا بد من التفرغ لشأنهم .فترك تجارته، وفُرض له من بيت المال ما يكفيه ويكفي عياله بالمعروف، لا أكثر.[123]

وكان بيت المال عنده موضع صرف لا موضع تكديس؛ فما يصل إليه من مال يقسمه على مستحقيه، وينفق منه في الفقراء وتجهيز الجيوش وشراء الإبل والخيل والسلاح، حتى كان بيت المال يفرغ مما فيه .وتذكر الروايات أنه كان يسوي بين الناس في العطاء، لا يميز غنيًا لشرفه ولا قويًا لقوته.[124]

لكن أعجب ما في سيرته المالية يظهر عند موته.

فقد أوصى أن يُرد إلى بيت مال المسلمين ما بقي عنده مما انتفع به زمن الخلافة، وقال لعائشة رضي الله عنها بمعنى كلامه :لم نأخذ لأنفسنا من مال

(123) البخاري (2070)، في رزق أبي بكر من بيت المال؛ وابن سعد، الطبقات (186/3).
(124) البخاري (2070)، في رزق أبي بكر من بيت المال؛ وابن سعد، الطبقات (186/3).

المسلمين دينارًا ولا درهمًا، وإنما أكلنا من أوسط طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم، ثم أمر برد ما بقي من متاع ارتبط بولايته إلى عمر رضي الله عنه.[125]

فلما وصل ذلك إلى عمر قال كلمته المشهورة:"رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده".[126]

وهنا يظهر ميزان الصديق: لم يكن المال العام عنده مالًا مباحًا للحاكم لأنه يملكه أمر التصرف فيه، بل مالًا له أصحاب، وهو عليه أمين.

فأخذ منه قدر الحاجة حين تفرغ لشؤون الأمة، وأنفقه في مواضعه، ثم خاف أن يلقى الله وفي يده شيء يشتبه في حقه.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: دخل الخلافة والمال في يده أمانة، وخرج منها ولم يجعل لنفسه منه غنيمة؛ فكان غنيًّا عن مال المسلمين وهو يحكمهم، وأشد الناس محاسبةً لنفسه حين فارقهم.

(125) الطبراني، المعجم الكبير (60/1، رقم 38)؛ وفي إسناده انقطاع. وانظر البيهقي، السنن الكبرى، باب رزق الإمام.
(126) الطبراني، المعجم الكبير (60/1، رقم 38)؛ وفي إسناده انقطاع. وانظر البيهقي، السنن الكبرى، باب رزق الإمام.

حين اجتمعت الأضداد في رجلٍ واحد

قد يكون الرجل رحيمًا فيضعف، أو قويًا فيقسو، أو متواضعًا فيتهاون، أو حازمًا فيجفو .لكن عظمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ظهرت في أنه جمع صفات قد تبدو متباعدة، ثم وضع كل واحدة منها في موضعها الصحيح.

كان رقيق القلب، كثير التأثر، سريع الدمعة، ومع ذلك كان من أثبت الناس عند الشدائد.

وكان لين الجانب، حسن المعاشرة، قريبًا من الناس، ثم إذا تعلق الأمر بأصل من أصول الدين لم يعرف التردد.

وكان متواضعًا في حياته، لا تعجبه المظاهر ولا تغيّره المكانة، لكنه في موطن القرار كان صاحب هيبة وعزم.

وكان يعرف قدر نفسه، فلا يتقدم حيث ينبغي له أن يتأخر، ويعرف قدر الرجال، فلا يخشى من قوة من حوله، ولا ينقصهم حتى يبقى كبيرًا.

وكان يحب، ويبكي، ويرق، ويأنس، لكنه لم يجعل العاطفة حاكمةً على الحق، بل جعلها في خدمته.

ولهذا لا يمكن أن تُختصر شخصيته في كلمة واحدة؛ لم يكن مجرد رجل رحمة، ولا مجرد رجل حزم، ولا مجرد صاحب عبادة، ولا مجرد قائد دولة.

بل كان كل ذلك في بناء واحد.

وهنا سر العظمة: ليست في أن تملك صفة قوية، بل أن تتوازن فيك الصفات حتى لا تفسد إحداها الأخرى.

هكذا ساد أبو بكر رضي الله عنه: لأنه لم يكن كبيرًا بصفة واحدة، بل بتوازن نفسٍ نادرة؛ رقّة بلا ضعف، وقوة بلا قسوة، وتواضع بلا وهن، وحزم بلا طغيان، ومحبة لا تصرفه عن الحق.

خاتمة: من صدق الإيمان إلى أمانة الخلافة

لم تكن سيرة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه سلسلة مواقف متفرقة في الشجاعة والرحمة والعدل، بل كانت حياةً واحدة يشدّ أولُها آخرَها؛ بدأت بمعرفة الحق والتصديق به، ثم مضت في نصرته والبذل لأجله، وانتهت بحمل أمانة أمةٍ كاملة دون أن يغيّر السلطانُ قلب صاحبها.

عرف أبو بكر رسولَ الله ﷺ قبل البعثة، وعرف صدقه وأمانته، فلما جاءه الإسلام كان من السابقين إليه. ولم يقف إيمانه عند نفسه؛ دعا إلى الله، وكان سببًا في إسلام رجال صار لهم في تاريخ الأمة شأن عظيم، وبذل من ماله في عتق المستضعفين ونصرة الدعوة، يوم كانت النصرة تكلّف صاحبها أمنه وماله ومكانته.

ثم جاءت الهجرة فاختاره الله لصحبة نبيه ﷺ في طريق الخطر، وخلّد القرآن تلك الصحبة بقوله تعالى :﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40) ولم تكن صحبة الغار مشهدًا عابرًا؛ فقد بقي أبو بكر إلى جانب النبي ﷺ

في المدينة، يشاركه أعباء الدعوة، ويشهد معه مواطن الجهاد، وينفق ويشير ويثبت، حتى قدّمه رسول الله ﷺ للصلاة بالناس في مرضه الأخير.[127]

فلما توفي النبي ﷺ وذهلت المدينة من هول المصاب، ظهر معنى الصدّيق في أعظم امتحاناته؛ ثبّت الناس، وذكّرهم بأن عبادة الله لا تنقطع بموت رسوله، وتلا قول الله تعالى :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: 144). في تلك اللحظة لم يكن مطلوبًا رجلٌ يحسن الحزن وحده، بل رجلٌ يعرف كيف يحفظ للناس دينهم ووحدتهم وسط الفاجعة.[128]

ثم تولّى الخلافة، فكانت أيامه القليلة من أشد مراحل تاريخ المسلمين حرجًا . أنفذ جيش أسامة وفاءً لأمر النبيﷺ ، وواجه حركة الردة وامتناع طوائف عن الزكاة بعزم لم تنل منه المخاوف، وأعاد تثبيت سلطان الدولة ووحدة جماعتها .وبعد استقرار الجزيرة وجّه الجيوش إلى العراق والشام، ففتح بذلك مرحلةً جديدة في امتداد الدولة الإسلامية.[129]

(127) التوبة: 40؛ والبخاري (3905)، في الهجرة.
(128) البخاري (1241–1242)، في موقف أبي بكر عند وفاة النبي ﷺ.
(129) البخاري (1399–1400) لمانعي الزكاة؛ والطبري، التاريخ، حوادث 11–13 هـ.

ولم يكن بناء الدولة عنده قوة السلاح وحدها؛ فقد حمل همَّ القرآن حين استُشهد جمع من قرّائه، فقبل مشورة عمر رضي الله عنه بجمعه، وكلّف زيد بن ثابت بهذه المهمة العظيمة .وكان يرى أن الولاية أمانة لا امتيازًا، وأن الضعيف صاحب حق لا يجوز أن تضيّعه قوة الأقوياء، وأن مال المسلمين لا يصير مالًا خاصًا لمن يتولى أمرهم.[130]

وحين دنا أجله، لم تشغله آلام المرض عن مستقبل الأمة؛ استشار أهل الحل والعقد من الصحابة فيمن يصلح لخلافته، ثم عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .وتوفي أبو بكر رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة للهجرة، بعد خلافة لم تدم إلا نحو سنتين وثلاثة أشهر، ودُفن إلى جوار رسول الله ﷺ الذي صدّقه وصحبه ونصره.[131]

وإذا تأملنا هذه المسيرة من أول إسلامه إلى آخر عهده بالخلافة، وجدنا أن أعظم ما جمع مراحلها أنه بقي الرجل نفسه: يرقّ قلبه ولا يضعف يقينه، ويشتد عزمه ولا يظلم، ويعظم قدره ولا تتعالى نفسه. لم تصنع الخلافة فضله، وإنما كشفت ما ربّاه عليه الإيمان والصحبة والاتباع.

(130) البخاري (4986) لجمع القرآن؛ وابن هشام، السيرة، خطبة الصديق.
(131) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ترجمة أبي بكر، خبر الوفاة واستخلاف عمر.

هكذا ساد أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: لم يطلب أن يكون عظيمًا في أعين الناس، بل صدق مع الله ورسوله ﷺ، وأدّى حق الصحبة حين كان صاحبًا، وحق الأمة حين صار خليفةً، وحق الأمانة حين أقبل على ربه؛ فبقيت سيرته درسًا في أن السيادة الحقّة ليست اسمًا ولا منصبًا، وإنما إيمانٌ ثابت، وعملٌ صادق، ومسؤوليةٌ تُؤدّى إلى آخر الطريق.

فرضي الله عن الصديق وأرضاه.

ولسوف يرضى.. حين يكون العمر كله لله

وحين نبلغ خاتمة سيرة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وننظر إلى ما اجتمع في حياته من صدق الإيمان، وعظيم البذل، وكمال الصحبة، والثبات في مواطن الشدة، وأمانة الخلافة؛ نجد أن من أجمل ما نختم به سيرته قول الله تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: 17–21).[132]

(132) سورة الليل: 17–21.

وقد رُوي عن الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾: «هو أبو بكر الصدّيق». ورُوي عن الصحابي عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر، حين كان يشتري ضعفاء المسلمين المستضعفين بمكة فيعتقهم من العبودية والعذاب.[133]

وذكر ابن كثير رحمه الله أن غير واحد من المفسرين قالوا بنزول هذه الآيات في أبي بكر الصدّيق، حتى حكى بعضهم اتفاق المفسرين على ذلك، وبيّن أن أبا بكر أولى الأمة بالدخول في عمومها؛ لما سبق به من التقوى والبذل والإنفاق ابتغاء وجه الله تعالى.[134]

وتأمل كيف جمعت هذه الآيات أصلًا عظيمًا من أصول السيادة الحقيقية: رجل يؤتي ماله ليزكي نفسه، لا يطلب جزاءً من الناس، ولا يسعى إلى رد جميلٍ لأحد، وإنما يريد وجه ربه الأعلى.

(133) رواية ابن الزبير: الطبري، جامع البيان، تفسير الليل: 19؛ وورد عن ابن عباس في الدر المنثور.
(134) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سورة الليل: 21.

وهكذا كان أبو بكر رضي الله عنه؛ بذل ماله حين كان الإسلام مستضعفًا، ونصر رسول الله ﷺ حين اشتد الأذى، وهاجر معه حين فارق وطنه، وثبت بعد وفاته حين اضطربت القلوب، ثم حمل أمانة الخلافة فلم يجعلها بابًا لمجد نفسه، بل مسؤوليةً يخشى التقصير فيها بين يدي الله.

لقد مضى الصدّيق رضي الله عنه بعد أن أدى ما استطاع من حق الصحبة والنصرة والقيادة، وترك للأمة سيرةً تتعلم منها أن السيادة ليست بكثرة المال ولا بعلو المنصب، وإنما بصدق العبودية لله، وبذل النفس والمال في مرضاته.

وهكذا ساد أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: عاش يبتغي وجه ربه الأعلى، وبقيت سيرته شاهدًا على أن أعظم ما يبلغه العبد أن يرضى الله عنه ويرضيه.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

مركز وصل للبحوث والدراسات